

الفصل الثالث

حوار الحضارات

المبحث الأول: الترجمة في فجر بغداد

المبحث الثاني: الترجمة في بيت الحكمة / الرواد من

الفلاسفة والمناطق والأطباء

المبحث الثالث: الفلاسفة المترجمون

البحث الأول

الترجمة في فجر بغداد

من أبرز الموانئ التي رست عندها حركة الفكر والثقافة في رحاب (مدرسة بغداد الفلسفية)، كان يوم تألق مشرقاً وجه الترجمة والنقل، إذ أن هذه الحركة على وفق كل المقاييس، حركة حضارية، تدل من جملة ما تدل، على ثقة مجتمع الناقلين بانفسهم، ومثانة مبادئهم، وصحة أفكارهم، وتدلل كذلك على سعة في الأفق، وسماحة في العطاء، أنهم يدركون أن الحياة لا تقع عند حد واحد، ولا تضمها دائرة مغلقة، أن سلفنا الصالح أدرك بسعة فكره وقوة بصيرته: أن المجتمع المنغلق على نفسه غير مجد، أنه كل ما كان منفتحاً على الفكر الآخر كان أكثر ثقافة ومعرفة بحضارة عصره، وبالتالي بما لدى الشعوب الأخرى من علم وثقافة ومدنية وحضارة^١، الأمر الذي تتلاقح فيه الأفكار، وتتفاعل عنده الثقافات، وتتجاوز في ظله الحضارات، وخاصة أن المسلمين أجابوا في الاقتباس، وجودوا في الأخذ، وهضموا ما نقلوه، يدركون ((إن العلم نور))^٢، وأن رسول الله الصادق الأمين، كان وراء الحث على طلب العلم من المهد إلى اللحد، وقد جاء في صحيح البخاري ((الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَرَثُوا الْعِلْمَ مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وَقَالَ (وَمَا يَعْطَلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (وقالوا لو

^١ دراستنا، الترجمة وروادها في بيت الحكمة، ضمن أبحاث الاحتفالية المنوية الثانية عشر على تأسيسه في بغداد، ١٢٠٠ عام، بغداد، ٢٠٠١، ص ٥٤٨-٥٨٨.

^٢ وعلى هذا وجدنا في الصحاح الستة وكتب الحديث الرئيسة الأخرى تفرد لهذا الموضوع كتباً وأبواباً منها ٥٣ باباً في صحيح البخاري، وفي صحيح مسلم جاء في أبواب ست، وفي سنن الترمذي جاء كتاب العلم في ١٩ باباً.

كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وقال (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ
فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ ((... وأن ما منعه عندما منعوا ((علوم الأوائل))،
من أجل ((إحكام قواعد الإسلام ورسوخ قواعد الأنام وقد حصل وانقضى))^١،
وعلوم الأوائل وعلى الخصوص منها الطب والنجوم والهيئة والهندسة والمباحث
الحكمية ((مما لا يقدح في العقائد الدينية))^٢، ومنها ما يناسب العلوم الإسلامية
ويخدم الفرد المسلم ويحتاج إليها المجتمع، وتزدهر به الثقافة...

وينقل اليعقوبي في تاريخه ((في أيام عبد الملك نقشت الدراهم والدنانير
بالعربية وكان الذي فعل ذلك الحجاج بن يوسف))^٤.

وقد قيل أن حكيم آل مروان، خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أمر
يوماً بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مصر، وقد تفصح هذا
النفر بالعربية، وأمرهم الأمير خالد بنقل الكتب عن اللسان اليوناني والقبطي -لغة
مصر القديمة- إلى العربية، ثم بعد ذلك نقل الحجاج بن يوسف الثقفي الديوان
وهو يضم جملة سجلات الدولة في العراق أيامه، وكان باللغة الفارسية إلى
العربية، نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم... ومن ثم أمر الخليفة هشام
بن عبد الملك بنقل الديوان في الشام إلى العربية، وكان بالرومية، نقله أبو ثابت
سليمان بن سعد، وكان حينها على كتابة الرسائل في بلاط الأمويين^٥، ويرى ابن

^١ البخاري، الصحيح، كتاب العلم، الترمذي، السنن، الحديث رقم ٢٥٦٩ والحديث رقم ٢٥٧٠،

ابن داود، السنن، حديث رقم ٣١٥٧ .

^٢ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٣٤-٣٥.

^٣ المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥.

^٤ ج ٣، ص ٢٣.

^٥ ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٠٣.

النديم في كتابه الفهرست: ((إن هذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة))^١، ولا أحسب أن هذا التحديد لسني الترجمة إلى اللغة العربية من اللغات الأخرى دقيق أو مؤشر صحيح، ولا بد أن يكون ابعده من ذلك، ولعله يرقى إلى الصدر الأول من الإسلام، بصيغة أو بأخرى، وأن الترجمة والنقل كانا قد مورسا قبل التاريخ الذي ذكره ابن النديم، وتحديدده بذلك الوقت لا ينسجم وطبيعة الأشياء ولا يتفق وصيرورة الثقافة في صدر دين جديد شغل الناس وهز عروشها، وكان بشيرا ونذيرا في العالمين جميعاً... نعم كانت ترجمات ونقل خالد، وكذلك ترجمات ونقل الدواوين، حركة رائدة، ولكنها ليست الأولى...

(إن تراثنا العظيم ما زال الكثير الكثير منه مغيباً، آثاراً خطية تعترز به خزائن الكتب) في المشرق والمغرب، وهذه الآثار الخطية الباقية التي تقدر لها أن تتجو من الحرق ومن الغرق والنتر والتمزيق والقوارض وآفات الأرض، عدا الحروب والحوادث والمصائب والفتن والجهالة، أدت بأضعاف ذلك من النخائر، لو تهيأ لهذا الميراث الضخم أن يصل إلينا كله، لاكتشفنا الكثير من الحقائق، ولعرفنا الكثير مما نحتاج إليه، ولأغنانا الآن عن كثير من التجارب المعادة المكررة، أن وراء كل كلمة من سطور هذه الآثار الباقية كنزا من العلوم والفنون والآداب ما زال يغري الغربيين بالاستشراق ويطعمهم في التشريق^٢، كان حرص علمائنا وأولياء الأمور من سلفنا الصالح، مشهوداً معروفاً، كانوا يبذلون الجهد ما وسعهم لصيانة العلوم، والعمل على إبقائها تصارع الدهر، وإسفاقهم عليها من أحداث الجو وآفات الأرض وجهل الجاهلين، أن اختاروا لها -كما ينقل ابن النديم- من الأماكن ((أصبرها على الأحداث وأبقاها على الدهر، وأبعدها من

^١ المصدر السابق، ص ٣٠٣

^٢ بحثنا (الخطاب النقدي العربي وإشكالية الديمقراطية)، المؤتمر الفلسفي الثاني للجمعية الفلسفية العربية، عمان، شباط/ ٢٠٠٠ ضمن كتاب بحوث المؤتمر.

التعفن والدروس))^١ ومع هذا فقد ضاع منها الكثير الكثير، لعل الأيام القادمة تكشف ما في الغيب...

الترجمة زمن المنصور (١٤٥هـ / ١٥٨هـ - ٧٦٢م / ٧٧٤م)

بدأت حركة الترجمة جادة واسعة نسبياً منذ الإرهاصات الأولى لفجر بغداد، فقد كان المنصور مؤسس بغداد ((أول من عنى بالعلوم، بل كان اعلم من في عصره، فقد كان مع براعته في الفقه، مقدماً في علوم الأوائل سيما في علم الفلسفة والطب والفلك وعلوم الهيئة وخاصة في النجوم محباً لأهلها))^٢، فشجع العلماء والنقلة على ترجمة المعارف من الحضارات الأخرى وأطلق أيديهم في العمل، وأنفق في هذا السبيل المال المطلوب، ومن جرائها نضجت حركة الترجمة في زمانه، مما يدل على تراكم الخبرات السابقة، والأرض الخصبة، والبيئة المتفتحة، وكثرة أعداد العارفين باللغات والألسن، الذين وفدوا إلى بغداد في أول تأسيساتها...

فمن كان مع المنصور من النقلة والمترجمين الذين ترجموا له ((من سائر الكتب القديمة من اليونانية، والرومية، والفهلوية، والفارسية، والسريانية، والهندية، وأخرجت إلى الناس، فنظروا فيها، وتعلقوا إلى علمها))^٣... منهم: نوبخت المنجم، ((وهو أبو هؤلاء النوبختية))^٤، الذي أسلم وابنه أبو سهل على

^١ الفهرست، ص ٣٠١.

^٢ الفهرست، ص ٣٦٤، الفن الأول، المقالة السابعة، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣١٤، ابن أبي أصيبعة، ج ١، ص ٢٠٠، صاعد الأندلسي، (طبقات الأمم)، ص ٥٤. فما بعد. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٣٤.

^٣ المسعودي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٤.

^٤ المسعودي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٤-٣١٥.

أيدي المنصور... وآل نوبخت لهم مشاركة في علوم الاوائل، وينقلون عن الفارسية إلى العربية، وقد اتصل نوبخت مبكراً بالمنصور وقد تنبأ له بانحدار حركة محمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم وصدقت نبوءته، فأقطع المنصور قطيعته المعروفة (بقطيعه النوبختية) ، ولما ضعف نوبخت ((عن خدمة المنصور أمره المنصور بإحضار ولده ليقوم مقامه))^١، وحضر الولد لخدمة المنصور وسماه المنصور أبا سهل^٢... ومن النقلة والمترجمين أيضاً: ((إبراهيم بن حبيب الفزاري المنجم، صاحب القصيدة في النجوم وغير ذلك من علوم النجوم والهيئة والفلك، وابنه محمد بن إبراهيم الفزاري -إن لم يكونا شخصاً واحداً- ومنهم علي بن عيسى الاسطرلابي المنجم))^٣، ومن ابرز مترجمي المنصور من الفارسية أيضاً عبد الله بن المقفع، الذي نقل له كتاب (كليلة ودمنة) وشيئاً من كتب المنطق والطب اليونانيين نقلها ابن المقفع من الفارسية إلى العربية، بعد أن سبق أن نقلت هذه الكتب من لغتها الأم إلى الفارسية^٤، أما أول من ابتدأ في نقل الكتب الطيبة وغيرها من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي فهو جد هؤلاء البخاشعة الاطباء، جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع، ((عندما استدعاه المنصور))^٥، ((في سنة مائة وثمان وأربعين للهجرة، ونقل له كتباً كثيرة من كتب اليونانيين إلى

^١ الطبري، ج ٩، ص ٢٩٦، حوادث ١٤٥هـ، ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٧.

^٢ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء...، ص ٨٥.

^٣ المصدر السابق، ص ٨٥.

^٤ المسعودي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٤، ويذكر ابن النديم أن علي بن عيسى كان غلام المروروزي وهو من صناع الإسطرلاب أيام المأمون، تتلمذ على ابن خلف المروروزي الذي عمل الإسطرلاب للمأمون، الفهرست، ص ٣٤٢.

^٥ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٠٣، ٣٦٤.

^٦ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧١.

العربية))، وكان البطريق مترجماً للمنصور أيضاً من اللسان اليوناني (وأمره بنقل أشياء من الكتب القديمة، وله نقل كثير وجيد، إلا أنه دون نقل حنين بن إسحاق) على رأي ابن النديم في الفهرست، ولا ضير في ذلك، بل أنه لأمر طبيعي، فإن حنين بن اسحق جاء بعد البطريق بما يقرب من قرن، وقد تقدم الزمن وتوسعت العلوم وزادت معارف الناس، ويمضي المسعودي في نقل الخبر الذي يصف فيه الخليفة المنصور، فيقول: ((المنصور هو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية، منها (كليلة ودمنة)، وكتاب (السند هند)، وترجمت له كتب أرسطوطاليس من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب (المجسطي) لبطليموس، وكتاب (الارتماطقي)، كتاب (اقليدس، وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية، وأخرجت إلى الناس، فنظروا فيها وتعلقوا إلى علمها))^١ ومن المناسب أن تكون لنا وقفة قصيرة مع ما ذكر المسعودي من الكتب التي ترجمت للمنصور.

كتاب (كليلة ودمنة)

((وهو سبعة عشر باباً، وقيل ثمانية عشر باباً، فسره عبد الله بن المقفع وغيره وقد نقل هذا الكتاب إلى الشعر... ولهذا الكتاب جوامع وانتزاعات عملها جماعة، منهم ابن المقفع وسهل بن هارون وسلم صاحب (بيت الحكمة)، والمريد الأسود الذي استدعاه المتوكل في أيامه من فارس))، ويذكر ابن النديم أيضاً: أن أبان بن عبد الحميد بن لاحق اللاهقي نقل كتاب (كليلة ودمنة) من الفارسية^٢، ويذكر صاعد الأندلسي، أن ما وصل بغداد زمن المنصور من علوم أهل الهند

^١ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٣٧ فما بعد.

^٢ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣١٤.

^٣ المصدر السابق، ص ١٨٦، طبقات الأمم، ص ٥٧.

في إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس كتاب (كليلة ودمنة)^١، الذي جلبه ((برزويه الحكيم من الهند إلى ملك الفرس وترجمه له من الهندية إلى الفارسية، ثم ترجمه عبد الله بن المقفع الخطيب من اللغة الفارسية إلى العربية وهو كتاب عظيم الفائدة، شريف الغرض، جليل المنفعة))^٢، في حين يرى آخرون أن من أهم الأسباب التي دفعت ابن المقفع إلى نقل كتاب (كليلة ودمنة) كان على سبيل المباهاة بالفكر الشعبي، وليظهروا للعرب ما كانت عليه أممهم من حضارة ورقية^٣، ولرواج هذا الكتاب وأهميته في زمانه ألف سهل بن هارون، الذي كان في خدمة المأمون وصاحب خزانة بيت الحكمة على منواله كتاباً اسمه (ثعلبة وعفره) على غرار كتاب (كليلة ودمنة)^٤، والمهم في الأمر أن كتاب كليلة ودمنة قد فقد أصله الهندي وتحدّر إلى الأمم الأخرى بترجمته العربية التي أصبحت المصدر الذي ترجم عنه إلى أكثر من أربعين لغة^٥.

السند هند (السندھانتا):

هو الرسالة الهندية في الفلك، وهو الذي ذكره المسعودي على أنه ترجم للخليفة المنصور مع ما ترجم له من الفكر الآخر، هذه الرسالة هي نفسها التي أشار إليها اليعقوبي في تاريخه، وقال: هو ((الكتاب الأول الذي تسميه الهند (السند هند)، وتفسيره (دهر الدهور)... عملوا من ذلك المختصرات والأبحاث وما أشبهها من الحساب، ووضع التسعة الأحرف الهندية التي تخرج منها جميع

^١ المصدر السابق، ص ١٨٦، طبقات الأمم، ص ٧٧.

^٢ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٢٠-٢١، ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٤.

^٣ محمد عبد الرحمن مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، ١٩٧٠، ص ٧١.

^٤ الفهرست، ص ١٣٤، د. رشيد الجميلي، حركة الترجمة...، ص ٢٢٥.

^٥ د. رشيد الجميلي، حركة الترجمة...، ص ٤٧٢.

الحساب وهي: (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠)، ومما يذكر هنا أنه ((في سنة ست وخمسين ومائة، قدم على الخليفة المنصور رجل من الهند، عالم بالحساب، المعروف بالسند هند في حركات النجوم...)) فأمر المنصور بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، وأن يؤلف منه كتاباً تتخذة العرب أصلاً في حركات الكواكب، فتولى محمد بن إبراهيم الفزاري، وعمل منه كتاباً يسميه المنجمون (السند هند الكبير)، وعمل منه زيجه المشهور ببلاد الإسلام عول فيه على أوساط (السند هند)، وخالفه في التعاديل والميل))^٢.

وفي زمن الخليفة المأمون قام ((حبش الحاسب عبد الله البغدادي بعمل زيح مؤلف على مذهب (السند هند) خالف فيه الفزاري والخوارزمي في عامة الأعمال))^٣. وترجمت للخليفة المنصور كتب ارسطوطاليس من المنطقيات وغيرها. وكتبه المنطقية هذه على ما هو معروف ((ثمانية كتب))^٤، يذكرها ابن النديم بالاسم اليوناني ثم يضع إلى جانبه ترجمتها العربية فيقول: (قاطيغورياس)، معناه المقولات، و(باري ارميناس) معناه العبارة، و(انالوطيقا)، معناها تحليل القياس، و(ابود قطيقا، وهو أنالوطيقا الثاني) ومعناه البرهان، و(طوبيقا) معناه الجدل، و(سوفسطيقا)، معناه المغالطة، و(ريطوريقا) معناه الخطابة، و(أبو طيقا)

^١ ج ١، ص ٧٠، الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١١٢-١١٤.

^٢ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٧٨، القفطي، (أخبار الحكماء...)، ص ١٧٧، في حين يجد البيروني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة...)، ص ٣٥١-٣٥٢، أن تاريخ تقديم الكتاب إلى الخليفة المنصور كان سنة أربع وخمسين ومائة للهجرة، ولا يغير ذلك من الأمر شيئاً ولعله أقرب إلى الصواب... وللباحث وجهة نظر في أمر محمد بن إبراهيم الفزاري وأبيه إبراهيم بن حبيب الفزاري فصلها في الصفحات السابقة من هذه الدراسة.

^٣ القفطي، أخبار الحكماء...، ص ١١٧.

^٤ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٠٨.

ويقال (بوطيقا) معناه الشعر))^١، ويبدو أن البعض من هذه الكتب قد نقلت زمن الخليفة المنصور، وكان النقل من الفارسية مرة، حيث كانت هذه الكتب اليونانية قد ترجمت إليها ونقلها عبد الله بن المقفع من الفارسية إلى العربية، ومنها كتاب (قاطيفورياس) ومعناه المقالات، فإن ((لهذا الكتاب مختصرات وجوامع مشجرة وغير مشجرة لجماعة منهم ابن المقفع))^٢، ولكتاب (باري ارميناس) معناه العبارة مختصر لابن المقفع أيضاً، ويبدو أن البطريق وابنه يحيى قد ترجما بعض هذه الكتب المنطقية ومما يذكر أن أبا يحيى البطريق ((كان في أيام المنصور وأمره بنقل أشياء من الكتب القديمة، وله نقل كثير جيد...))^٣

ولأن الخليفة المنصور كان أول من اعتنى بعلوم الفلسفة وعلم المنطق يذكر صاعد الأندلسي أن ابن المقفع ترجم له ثلاثة كتب ذكر منها ابن النديم الكتابين المشار إليهما وذكر صاعد الكتاب الثالث فكان كتاب (انالوطيقا) ومعناه البرهان، وكانت ترجمة ابن المقفع تلك ((عبارة سهلة قريبة المأخذ))^٤.

كتاب (المجسطي) لطليموس في علم الفلك وحركة النجوم.

هذا الكتاب على ما يذكر ابن النديم ((ثلاث عشرة مقالة، وأول من عنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك))^٥، وهذا خلاف ما نقله المسعودي، من أن كتاب المجسطي كان قد نقل زمن الخليفة المنصور، من

^١ الفهرست، ص ٣٠٨-٣٠٩.

^٢ المصدر السابق، ص ٣٠٩.

^٣ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء...، ج ٢، ص ١٧٤.

^٤ طبقات الامم، ص ٧٧، القفطي، أخبار العلماء...، ص ١٤٨-١٤٩.

^٥ الفهرست، ص ٣٢٧، ومن المرجح أن يحيى البرمكي كان قد اطلع على الترجمات السابقة زمن المنصور فأوصى بتفسير الكتاب ففسر له، وأعيدت ترجمته.

الممكن أن تكون تلك الترجمة زمن المنصور، غير مرضية، ولكنها كانت ترجمة على أي حال، فإن لهذا الكتاب ترجمات كثيرة بعد ذلك رفضت جميعاً، ولم يبق إلا ترجمة حنين بن إسحاق وإصلاح ثابت بن قرة، وذلك دليل العمل المتطور المتقن... وكتاب بطليموس هذا عند صدوره كان عملاً مبتكراً غير كثيراً من الأمور كانت قبله حقائق وكان هوى المنصور في النجوم والفلك ورصد الكواكب وليس أنفع له من هذا الكتاب لما تضمن من وصف لآلات الرصد التي تنفعهم في رصد بعض الكواكب والنجوم وحرركاتها وأحكامها، وعلى الخصوص قراءة الحظ وما يخفيه المستقبل، ولنا في النوبختية مثلاً^١...

كتاب الارتماطقي

وهو في العلوم العددية، وموضوعه ((معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف، أما على التوالي أو بالتضعيف، وهو أصول العلوم الفلسفية التعليمية وهي سبعة وأولها علم المنطق وهو المقدم منها وبعده التعاليم فالارتماطقي أولاً، ثم الهندسة، ثم الهيئة، ثم الموسيقى، ثم الطبيعيات، ثم الإلهيات ولكل واحد منها فروع تنفرع))^٢، فمن فروع الارتماطقي علم (صناعة الحساب) وعلم (الجبر والمقابلة) و(حساب الفرائض والمعاملات)، وكان أبو جعفر المنصور قد بعث إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، ((فبعث إليه بكتاب اوقليدس وبعض كتب الطبيعيات، فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازداد حرصاً على الظفر بما بقي منها))^٣... كان الخليفة المنصور متحمساً غاية الحماسة لنقل

^١ فصل اليعقوبي في تاريخه الكلام عن هذا الكتاب وأشار إلى أبوابه ومقالاته؛ ج ١، ص ١١٥، فيما بعد.

^٢ ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٧٩ فما بعد.

^٣ ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٤٨٥-٤٨٦، ابن النديم، الفهرست، ص ٣٢٥.

العلوم العقلية ومعرفة ما في حضارات الدنيا من علوم، فإن أساس بغداد متين ومدرستها الفلسفية عامرة لا تخشى الأفكار الوافدة ولها القدرة لتدجينها وهكذا كانت الترجمة في تأسيساتها الأولى في فجر بغداد.

(كتاب أصول الهندسة) لأقليدس:

ويسمى كتاب الأركان، ((وهو أبسط ما وضع للمتكلمين، وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور))، ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين. ((ويشتمل على خمس عشرة مقالة، أربع في السطوح، وواحدة في الأقدار المتناسية وأخرى في نسب السطوح بعضها إلى البعض وثلاث في العدد، والعاشر في الجذور، وخمس في المجسمات وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة... وعليه شروح كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية بإطلاق)).^١

يبدو أن كتاباً كثيرة غير ما ذكرنا، قد ترجمت للخليفة المنصور من العلوم القديمة من لغات مختلفة، ويبدو أن معظمها ما زال مغيباً ولكنها على الغالب كانت قد أخرجت إلى الناس ((فنظروا فيها وتعلقوا إلى علمها... وقد نظر المنصور في العلم وقرأ المذاهب وارتاض في الآراء))^٢، وهو ما سيكتف في قابل الأيام.

الترجمة زمن الخليفة المهدي (١٥٨هـ / ١٦٩هـ - ٧٧٥م / ٧٨٥م)^٣

^١ ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٤٨٥-٤٨٦، ابن النديم، الفهرست، ص ٣٢٥.

^٢ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣١٤-٣١٥.

^٣ الخليفة المهدي/ هو أبو عبد الله محمد بن الخليفة عبد الله المنصور، ولد ١٢٧هـ / ٧٤٤م وتوفي سنة ١٧٩هـ / ٧٨٥م وبويع له بالخلافة سنة ١٥٨هـ / ٧٧٥م بعد موت أبيه، فكانت خلافته ١١ سنة.

وجد غير باحث أن حركة الترجمة لم تلق الاهتمام ذاته من لدن الخليفة المهدي ((الأمر الذي أدى إلى ركود ذلك النشاط الذي حفل به عهد المنصور))^١، وقد يظهر ذلك صحيحاً لأول وهلة، ولكن المدقق لحديثاته وأسبابه، يجده على غير الصواب، لأسباب كثيرة: أهمها: أن إطلاق حركة الترجمة وتشجيع المترجمين ودعوتهم لبغداد من الحواضر الأخرى والتفاف رعاة الترجمة وطالبي إنتاجها زمن المنصور بالشكل الذي وجدنا، كان مبدأ رسمياً ومفهوماً حضارياً اتخذته الدولة بإصرار وتشجيع كل المعنيين، فهو قرار لا رجعة فيه، هذا أمر، والآخر: الهوى الشخصي الذي عرف به الخليفة المنصور ورغبته في الاطلاع على فكر معاصريه، وحاجته للطب وكتبه ورغبته في علم النجوم واستخداماته ولاتخاذ مادة الترجمة وسائل في صف الحجاج العقائدي، وتحويلها لتوائم الحركة الفكرية في البيئة البغدادية المسلمة، ولتكن الترجمة وإنتاجها شواهد صالحة تدعم الفكر، ولتستمر حركة تقدمية فاعلة ضد الحركات التي وجدها المنصور راغبة في إيقاف المسيرة الحضارية.. فحركة الترجمة إذن قرار سياسي كان ولي العهد المهدي من رعاته قبل الخلافة...

هذا أولاً: أما الأمر الآخر: فإن المترجمين والنقلة زمن المنصور ما كانوا أفراداً بل كانت حركة الترجمة ((صناعة بيئية))^٢ إن صح التعبير، وهي عمل مارسه بيوت معروفة الولد يأخذ عن الأب، وهذا أخذ عن الجد في عملية متلازمة لها مسوغاتها وأسبابها مثل عائلة (نوبخت) الذي خدم المنصور مدة،

^١ نقرأ تفاصيل ذلك عند الدكتور رشيد الجميلي، حركة الترجمة...، ص ٧٨ فما بعد.

^٢ كان رب العائلة المهتم بالترجمة حريصاً على عدم تعليم أصول هذه (الصناعة) وقواعدها إلى غير أهله أو من هم في حكمهم فكان الأب يلقن أبنائه أصول الترجمة وأسرارها وآدابها وكان يدرّبهم على ذلك بإشراكهم معه في العمل حتى يتقن المهنة إتقاناً تاماً فيحتفظ هؤلاء بأسرار هذه المهنة ليسلموها إلى الجيل التالي من أبنائهم...

وعند تقدمه بالسن جاء بابنه وذلك جاء بأبنائه الثلاثة، واستمر هذا البيت يخدم حركة الترجمة في قصور الخلفاء والوزراء سنين، وقولنا هذا ينسحب على أبي يحيى البطريق وابنه يحيى وأفراد عائلتهم، وكذلك بالنسبة للبخاشعة من جدهم جورجيس الذي استدعاه الخليفة المنصور حتى آخر البخاشعة الذين خدموا الخلفاء العباسيين، مما يدل على أن حركة الترجمة كانت (صناعة بينية) مستمرة لم تتوقف بموت خليفة أو أي من رعاة الترجمة والناقلين، بل هي تستمر لأن فيها فائدة عامة شاملة لأهل الحل والعقد أو لعامة المتقنين في ذلك المجتمع...

والأمر الآخر الأكثر أهمية، أن حركة الترجمة المناهضة في فكرها لفكر الدولة، كانت قد نشطت زمن الخليفة المهدي، وكانت حركة الزنادقة والملحدين من أصحاب وطلاب عبد الله بن المقفع وابن أبي العوجاء وأضرابهم، قد اتخذت من الترجمة ما يؤيد أفكارها ((وكان إعلانهم باعقاداتهم في خلافته لما أنتشر من كتب ماني وابن ديسان ومرفيون ومما نقله عبد الله وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية، وما صنفه في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن إياس، من تأييد المذاهب المانية والديصانية والمرفيونية، فكثر بذلك الزنادقة، وظهرت آراؤهم في الناس))^١، وليس هذا فقط، بل أن هذه الحركة كانت قد دخلت من أوسع أبوابها في قصر الخليفة المهدي نفسه، يذكر اليعقوبي في تاريخه ((إن صالح بن أبي عبيد الله كاتبه زنديق، فأحضره، فلما صح عند أقره واستتابه، فقال (صالح) لا رغبة عما أنا عليه ولا حاجة في غيره فأمر المهدي أبا عبيد الله آياه أن يقوم فيضرب عنقه))^٢، وهذا يعني أن هذا الأمر قد بلغ بكاتب المهدي مبلغا، طلب فيه الموت، على أن يقول غير ما كان يعتقد، ولذا وجدنا الخليفة المهدي يستدعي المفكرين في عصره

^١ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣١٥.

^٢ اليعقوبي، التاريخ، ج ٣، ص ١٢٨.

((ويأمر الجدليين ممن هم أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحددين... وأقاموا البراهين على المعاندين، وأزالوا شبهة الملحددين، فأوضحوا الحق للشاكين))^١. وهذا الجدل وتلك المناظرة لا بد أنها قد شغلت أهل الفكر ودفعت كل فريق بترجمة ما يعضد فكره، ويستعين بالترجمة لإيصال صوته، ويؤكد غير باحث ((إن الإلياذة والاونيسة ملحمتي اليونان المعروفتين قد ترجمتا إلى العربية زمن الخليفة المهدي))^٢. ولكن هذا الكم وهذا النوع من الترجمة لم يصل لأي سبب، لا لأنه غير موجود، مع أن هذا النتاج لم يكن الوحيد الذي لم يصلنا نحن أحفاده فقد سبقه ولحقه الكثير لعل قابل الأيام ستظهره.

الترجمة زمن الخليفة الهادي (١٦٩-١٧٠هـ / ٧٨٥-٧٨٦م):

ويمثل ما قيل عن حركة الترجمة زمن الخليفة المهدي قيل في الترجمة زمن ابنه الخليفة الهادي، من أنها لم تلق الاهتمام، وآلت في زمانه إلى ركود وعدم تكرار أنعكس على حركة الترجمة بشطريها الكمي والنوعي، ولكن لحسن الحظ لم يدم هذا طويلاً إذ سرعان ما بزغ عهد جديد بلغت الترجمة فيه مبلغاً جاوز في حده كل ما سبقه في هذا الباب وذلك هو عهد الخليفة هارون الرشيد...

لا خلاف في هذا الأمر وإن بزوغ عهد جديد مسألة موثقة بلغت الترجمة فيه مبلغاً جاوز فيه كل من سبق منذ فجر بغداد حتى ظهور رجالات أسسوا لبيت الحكمة وبناء شخصياته، ولكن الخلاف في ركودها زمن الخليفتين المهدي والهادي وهو الأمر الذي نفينا بعد أن وجدناه قد جانب الصواب للأسباب التي ذكرناها سابقاً والتي يمكن سحبها بالكامل على حركة الترجمة منذ المنصور وحتى الرشيد...

^١ المسعودي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٥.

^٢ د. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٨٩.

والخليفة الهادي على قصر أيامه في الخلافة (سنة واحدة) كانت أمراضه مزمنة، وكان منشغلاً في مسألة خلع ولي عهده الرشيد وتنصيب ابنه جعفر، وكانت أمه الخيزران هي القول الفصل في قصره ((حاكمة مستبدة بالأمور الكبار))^١ منذ أيام زوجها الخليفة المهدي، ويوم مات الهادي، أخفت موته عن الناس، واستدعت بعض المقربين إليها ليشهدوا لحظات الخليفة الهادي الأخيرة، يقول يحيى: ((فوجدته محول الوجه إلى الحائط وقد قضى، فمضيت إلى هارون حتى أخرجته من الموضع الذي كان فيه محبوساً، فأصبح القواد فبايعوا، وأصبحت أدير الملك))^٢. ولهذا كله يعد عصر الهادي امتداداً لعصر الرشيد الذهبي، ولم تنتكس حركة الترجمة في زمانه، بل مضت تتطور في مسيرة ليس لها آخر، نعم لم تكن الترجمة لتزدهر يوماً من تلقاء نفسها ((لكلفتها المادية ولنزعتها الاخلاقية، واتجاهها المعرفي، إلا بوجود من يشجعها ويدعمها ويرعاها حبا بها وإدراكاً لأهميتها واعترافاً لفائدتها))^٣، لا سيما وأن أياً من وسائل الترجمة المعروفة الآن ما كانت موجودة مثل المعاجم الثنائية والخبرة المترجمة. ولذا كان الخليفة هارون الرشيد قبل أن يهبط (بيت الحكمة) كان يمد المترجمين بالخبرة والمال والمراجعة والتدقيق، لتكون الترجمة حينئذ مستوفية مفيدة، وهذا لا يعني أن الترجمة ذلك الزمان كانت إبداعاً مضافاً أو تعبيراً مستوفياً دقيقاً، بل كانت ترجمة حرفية لاشيء فيها من فن المترجم، كما لا هم للناقل الذي نقل المادة بذاتها حرفاً بحرف إلا أن يكتبها كما تمكن منها وما كان الناقل مدركاً للعلم الذي ينقله لأنه لا ينقل بالمعنى لأن ذلك يستلزم خبرة وإمكانية مترجمة، وهي التي شاهدناها في العصور اللاحقة... نعم كان المترجم والناقل منذ فجر بغداد يتعامل

^١ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٠.

^٢ اليعقوبي، التاريخ، ج ٣، ص ١٤٣-١٤٤.

^٣ د. رشيد الجميلي، حركة الترجمة... ص ٢٤٥ فما بعد.

مع مجموعة المعارف والعلوم من زوايا الترجمة كافة فهو طبيب وفاكي وإسطنبولي وهو جغرافي وفيلسوف وغير ذلك من العلوم قدر تعلق الأمر في ترجمته ونقله لتلك الاختصاصات جميعاً بل من الواضح أن المترجمين ذلك الوقت كانوا وسائل لأصحاب المصلحة، أطباء فلكيين فلاسفة وهكذا في أغلب الترجمة والنقل...

الترجمة زمن الخليفة هارون الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٣هـ / ٧٨٦م -

٨٠٨م):

ومضت أيضاً حركة الترجمة تتطور في عهد الرشيد وتلك سنة الحياة: أن غرست نبتة صالحة في بيئتها وفي مناخها ولها من يرعاها نمت وأينعت وأثمرت وأنت أكلها، ولذا حركة الترجمة في عهد الخليفة الرشيد كانت في بيئتها، وقد استمر العمل فيها وكان فيها أهل مهنة، احترموا مهنتهم فاحترمهم الناس لاحترامها، أثمرت العائلة من أهل النقل والترجمة، أبناء مضوا على خطى آبائهم في المهنة، وكانت حركة الترجمة في مناخها بين أيدي الأطباء، بين أيدي المنجمين وأهل الهيئة وأصحاب الفلك، بين أيدي الفلاسفة والمتكلمين وأهل المنطق، كل يتشوق للجديد منها، ويبدل في سبيل الحصول عليها، ثم كان البيت الأكاديمية الذي نظم أمورها الإدارية والفنية، وقامت مصانع الورق الانقلاب العظيم في التراكم الحضاري والمد الثقافي... فهي إذن تتطور، لها من يرعاها، ويتفقد أصحابها، ويسأل عنهم إذا غابوا، ويسفر بهم إلى مضان المخطوطات إذا شحت، فهي إذن تتطور^١...

وفي البداية ومنذ زمن الخليفة المهدي وجد السيوطي: إن لدى الخليفة الرغبة في فك أسر الكتب اليونانية التي كانت عند الروم وخروجها إلى بلاد

^١ حركة الترجمة... ص ٩٠ فما بعد.

الإسلام، فترجمت بالعربية، وشاعت في أيدي المسلمين الذي أمر عبد الله بن هلال (ت ١٦٥هـ / ٧٨١م) في خلافته بترجمة كتاب (كليلة ودمنة) من الفارسية إلى العربية، كما أمر سهل بن نوبخت، فنظم تلك الترجمة وأصلحها فأعطاه ألف دينار))^١، وكتب أبو عمر كلثوم كتاب (المنطق) وكتاب (الألفاظ)... ويجد السيوطي أيضاً: أن الخليفة هارون الرشيد كان السبب في فك أسر الكتب اليونانية التي كانت عند الروم، وخروجها إلى بلاد الإسلام، عندما أفضى الأمر في دولة بني العباس إليه، وكان ملك الروم قد خاف على الروم أن نظروا في كتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية، ويرجعوا إلى دين اليونانية، وتشتت كلمتهم وتفرق جماعتهم، فجمع الكتب في موضع وبنى عليه بناء، وما أن سمع الخليفة هارون الرشيد ذلك صانع ملك الروم الذي في وقته بالهدايا، ولا يلتبس منه حاجة فلما جاء رسول الخليفة بالهدايا قال: قل لصاحبك أن كانت له عندنا حاجة فليذكرها، فلما أخبر الرسول الخليفة رده إليه وقال: حاجتي الكتب التي تحت البناء يرسلها لي اخرج منها بعض ما احتاج إليه واردها، فلما قرأ الرومي كتابه، استطار فرحاً وجمع البطارقة والأساقفة والرهبان وقال لهم: كنت قد ذكرت لكم عن رسول الخليفة هارون الرشيد وأنه لا يخلو عن حاجة وقد أفصح عن حاجته وهي أخف الحوائج علي... وأنا أرى أن ابعت بها إليه واسأله أن لا يردها فيبتلون بها ونسلم نحن من شرها... فقالوا نعم الرأي رأيت أيها الملك فامضه، فبعث بالكتب إلى بغداد فلما وصلت إليه جمع عليها كل زنديق وفيلسوف فمما أخرج منها كتاب حد المنطق)^٢، ويرى ابن النديم أن الخليفة هارون الرشيد أول من عنى بتفسير (كتاب المجسطي) وإخراجه إلى العربية ولا أرى ذلك دقيقاً لأن هذا الكتاب كان قد ترجم زمن الخليفة المنصور كما أوضحنا سابقاً...

^١ السيوطي، المصدر السابق، ص ٨.

^٢ المصدر السابق، ص ٦-٩.

والحاصل على ما يجمل السيوطي أن علوم الأوائل دخلت إلى المسلمين في القرن الأول لما فتحوا بلاد الأعاجم لكنها لم تكثر فيهم ولم تشتهر بينهم، لما كان السلف يمنعون من الخوض فيها ثم اشتهرت في زمن الخليفة هارون الرشيد ومن المرجح أن الخليفة لم يقتصر في رعايته للترجمة من لغة مخصوصة دون غيرها فيقول ابن النديم أن الذي عنى بأمر الهند في دولة العرب كان الخليفة هارون الرشيد ويذكر ابن النديم أيضاً أن الخليفة هارون الرشيد بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم، وأن يكتب له أدبهم فكتب له هذا الكتاب

ومن المرجح أن عهد الخليفة الأمين بن هارون الرشيد كان امتداداً لحركة الترجمة في عهد أبيه كما كان عهد عمه الخليفة الهادي امتداداً لعهد الرشيد، المهم أن الترجمة عمل حضاري لا يتوقف بالأحداث السياسية التي هي أحداث مدنية لا علاقة لها بالتراكم الحضاري والمد الثقافي...

الترجمة زمن الخليفة المأمون والعصور التي تلتها (١٩٨هـ/٨١٣م-

٢٥٢هـ/٨٦٦م)

في البدء وعندما جاء الله تعالى بالإسلام، ((وكان لأهله الظهور))^١، وبعد أن ((رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا))^٢ وما أن استقر الأمر، ((أخذت الحضارة منهم بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم، وتفننوا في الصنائع والعلوم وتنشقوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمة))^٣، فمنذ الحضارة والثقافة في شعاب مدنيهم، وتعملق نظام الحكم بعد المنصور وابنه وحيديه حتى ((جاء

^١ ابن خلدون، المقدمة ص ٤٨٠.

^٢ سورة النصر، آية ٣.

^٣ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٠.

المأمون بعد ذلك، وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله، فاتبعت لهذه العلوم حرصاً، وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين، وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك، فأوعى منه واستوعب، وعكف عليها، النظار من أهل الإسلام وخذقوا في فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها، وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول (أرسطو) واختصوه بالرد والقبول، لوقوف الشهرة عنده، ودوتوا في ذلك الدواوين، وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم^١)، ويبدو أن ابن خلدون في قوله ذلك كان مؤكداً لقول مشابه سبقه، ذكره صاعد بن أحمد الأندلسي (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) قوله ((تمم (المأمون) ما بدأ به جده (المنصور) فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معانده بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة، فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب (أفلاطون) و(أرسطوطاليس) و(أبقراط) و(جالينوس) و(أقليدس) و(بطليموس)، وغيرهم من الفلاسفة، فاستخار لها مهرة الترجمة وكلفهم إحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حض الناس على قراءتها ورغبتهم في تعليمها، فنفتت سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصره، وتتافس أولوا النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إمضائه لمنتحليها واختصاصه لمقلديهم، فكان يخلو بهم، ويأنس بمناظرتهم، ويلتذ بمذاكرتهم، فينالون عنده المنازل الرفيعة، والمراتب السنية، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والشعر والنسب، فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعليم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة وسنوا لمن بعدهم مناهج الطب، ومهدوا أصول الأدب، حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية

^١ ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٤٨١.

أيام اكتمالها، وزمان اجتماع شملها...))^١، فكان عصر المأمون بحق العصر الذهبي لحركة الترجمة، ثم استمرت بعده ولم تنتكس مطلقاً، نعم اختلف الأسلوب والعمل والنقل وفحوى الترجمة من زمان إلى زمان فبعد أن كانت الترجمة نقل الحافر على الحافر، حرفية لا إبداع فيها، صارت في زمن المأمون ترجمة بالمعنى، تصدى لها خبراء وتفطن بها علماء كانوا أهل اختصاص في العلوم التي نقلوها، فلم يعد الناقل بعد هذا العصر الذهبي ينقل كتباً من غير اختصاصه، كان الطبيب المترجم لا ينقل غير الكتب الطبية، والفيلسوف أو محب الفلسفة لا ينقل غير الكتب الفلسفية، وهكذا بقية العلوم، ثم جاءت الشروح والملخصات والتأليف، وحضر المشهد المؤلف الذي يستفيد من لغة أخرى، حتى أضحت الترجمة عملية من عمليات نشر الثقافة والعلوم، وبات التأليف من الوظائف الشريفة والمراتب العالية، ولذا وجدت الترجمة مستمرة وعملية الاطلاع على الفكر الآخر متوالية لم تنقطع سواء شجع الخليفة أو غيره من الموسرين الترجمة أو لم يشجع، فهي حاجة اجتماعية أضحت مطلوبة ومتممة لتحصيل العلوم، فقد وعاهم العلماء واستفاد منها المصنفون وهي مسألة حضارية يضاف إليها من نشاط الثقافة العام كل يوم ومن دون انقطاع، وليس لها علاقة بذهاب خليفة أو موت وزير، فهي عملية حضارية وليست حركة مدنية أو أسلوباً مدنياً يتغير بتغير الحاكم وينسلخ بانسلاخ نظامه بل تراكم تراثي مستمر عبر الزمن، لا يموت بتوالي السنين، بل الحضارة وتراكمها باق ما بقيت الحياة على هذا التركيب...

ومن الغريب أن يبلغ التساؤم بالفاضي أبي انقادس مساعد بن أحمد الأندلسي فيقول: ((بدأت تنقص (حركة الترجمة بخاصة والثقافة بعامة) ولتمام ثلاث مائة سنة خات لتأريخ الهجرة اختل الملك، وتغلب عليه النساء والأثراك، فلم يزل الناس يزهدون في العلم، وينشغلون عنه بتزاحم الفتن، إلى أن كاد العلم يرتفع

^١ طبقات الأمم، ص ٧٦.

جملة في زماننا هذا، والحمد لله على كل حال)) '... هذا صحيح في المسألة السياسية والبعد القومي، ولكنه على المستويات التي عدد جوانبها في عرضه منذ زمن المنصور حتى حفيده المأمون، ليس صحيحاً، لأنه هكذا وبصياغة كلامية جعل من الحدث السياسي كل شيء في حين أنه ليس كذلك، صحيح أن النكبات وتلك الانتكاسات في واقعنا السياسي تلك الزمان غيرت وجه التاريخ، ولوت عنان التقدم، وأجهضت كيانات، ومحقت دولا، أوصل الأمة إلى أن تفقد الأندلس وما حدث فيها أثناء سقوطها وبعده، أنه أمر مخيف وقليل بحقه أن يسمى بعصر الانحطاط السياسي، عصر الانحدار والانزلاق ولكن يبقى الفكر مزدهراً وحضارتنا متراكمة...

^١ طبقات الأمم، ص ٧٧.

المبحث الثاني

الترجمة في بيت الحكمة/ الرواد من الفلاسفة والمناطق والأطباء

بيت الحكمة: خزانة (مدرسة بغداد الفلسفية) ومستودع علمها ومستقر فلاسفتها، ومرجع أقطابها، عاشت (مدرسة بغداد الفلسفية) منذ بواكيرها بين أحضان هذا البيت وأبصرت التأمل الفلسفي والجدل العقلي والإشعاع الفكري بين يدي أقطابه من الفلاسفة، كان يجتمع كل يوم في هذا المعهد العلمي الفلاسفة والعلماء والكتاب والمترجمون، للدرس والمناظرة أنشأه الخليفة هارون الرشيد عام (١٨٧هـ / ٨٠٢م) ليكون مجمعاً علمياً وأكاديمية فلسفية، وأودع فيه كتباً في علوم عقلية مختلفة هي مما جمعه جده المنصور وأبوه المهدي ومما عثر عليه هو في أثناء حروبه في أنقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم^١.

وتعملقت (مدرسة بغداد الفلسفية) في بيت الحكمة، ثم احتضنها الخليفة المأمون بعد ذلك الفجر، ووسع في أكاديميتها (بيت الحكمة) ومدده بمقومات الحداثة والحضارة العالمية التي كانت سائدة، كان (بيت الحكمة) أكاديمية علمية بالمعنى الصحيح، ونقطة نوعية أمدت (مدرسة بغداد الفلسفية) بكثير من طروحاتها وأجوبتها، أما لماذا سمي (بيت الحكمة)، (فإن النبي -عندهم جزء من الدار) على رأي الدكتور مصطفى جواد^٢...

أما على رأي أحمد أمين في كتابه (ضحى الإسلام)، قوله : مثلما كانوا قد أطلقوا اسم ((بيت المال على المكان الذي يُحفظ فيه مال الدولة وأشياؤها الثمينة،

^١ د. مصطفى جواد، دليل خارطة بغداد، بغداد ١٩٥٨، ص ١٣٠.

^٢ المرجع السابق، ص ١٣٠-١٣١.

فأنهم كذلك قد فعلوا وأطلقوا اسم (بيت الحكمة على المكان الذي أنشأته الدولة لحفظ كتب الحكمة خاصة...) ^١، ولذا كان حرص علمائنا، وأولياء الأمور من سلفنا الصالح يبذلون جهد ما وسعهم لصيانة العلوم، والعمل على إبقائها وديمومتها لتصارح المحن، وإشفاقهم عليها من أحداث الجو وأفات الأرض ومن الحرق ومن الغرق، والسهو والنسيان، أن اختاروا لها من الأماكن ((أصبرها على الأحداث أبقاها على الدهر، أبعدها من التعفن والدروس)) ^٢، وبيت الحكمة واحد من تلك الأماكن...

وكلمة (حكمة) كما نعلم مرادفة لكلمة (فلسفة)، لأن ما في هذا البيت من الكتب جميعها أو معظمها من كتب الحكمة والفلسفة والعلوم العقلية، وليست من الكتب النقلية، أو نحوها... ومثلما كان أفلاطون قد أسس أكاديمية لتدريس علوم الفلسفة وأفكارها، كانت فكرة إنشاء (بيت الحكمة)، ليكون مرجعاً للعلوم العقلية، ومجمعاً للعلماء فيها... ^٣

ومن هنا جاء استنتاج أستاذنا الدكتور عبد الجبار ناجي أن: ((بيت الحكمة ليس مجرد خزانة كتب، إنه بمثابة مؤسسة أو أكاديمية للبحث والترجمة بالدرجة الأولى)) ^٤، ولهذا كان الاهتمام فيه بالأساس بالجانب الفلسفي ثم بالعلوم العقلية الأخرى لاسيما علوم ذلك العصر الفلك والنجوم والهيئة...

^١ (القاهرة ١٩٥٩)، ج ٣ ص ١٢٥.

^٢ ابن النديم، الفهرست، ٣٠١.

^٣ د. عبد الجبار ناجي، بيت الحكمة رؤية تاريخية، ضمن كتاب (بيت الحكمة.. الماضي والحاضر) بغداد/ ١٩٩٧، ص ١١.

^٤ يذكر ابن النديم: في ترجمة علان الشعبي أنه كان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد وللمأمون... ص ١١٨.

قد لا يكون دقيقاً القول إن (بيت الحكمة) كان ملحقاً بقصر الخليفة أو إنه يشغل بناية مستقلة، لأن البيت أقرب إلى المؤسسة الشعبية منه إلى بروتوكولات قصور الخلفاء وبلاطاتهم وعلى الخصوص زمن المأمون الذي تميز بلاطه بمراسيم الملك، يجوز هذا زمن الخليفة هارون الرشيد بداية النشأة، أما بعد ذلك فقد كبر البيت وصار فيه أقسام منها أقسام مخصصة للترجمة من السريانية وأخرى من اليونانية وثالثة من الفارسية، وأقسام أخرى كانت تضم رجالاً يعملون في الوراقة والتصحيح والتجليد^١ وقد تناوب على منصب (صاحب بيت الحكمة) علماء ذو خبرة إدارية وفنية وكان أول أمين على هذا البيت سلم صاحب بيت الحكمة الأمين على الكتب التي نقلت إلى المأمون من القسطنطينية، إلى جانب سهل^٢ بن هارون الذي ألف كتاب (الحكمة ومنافعها)، وكذلك مجموعة (رسائل في الحكمة)، ومن رواد بيت الحكمة الكبار العالم الرياضي والفلكي الفيلسوف محمد بن موسى الخوارزمي، العالم الذي أقام الدنيا في زمانه، وما زال صداه مدوياً في عالم اليوم.^٣ .. ومن رواد (بيت الحكمة) الوزير الحسن بن سهل السرخسي والد بوران زوجة الخليفة المأمون، الذي كان رجل الدولة العباسية ومشاركاً في (علوم الأوائل)، على ما ينقل ابن أبي أصيبعة^٤... ومن الرواد أيضاً

^١ ابن النديم، الفهرست، ص ١٠ و ص ١٢، وذكر أسماء بعض المجلدين منهم : ((ابن أبي الحرش، وكان يجلد في خزانة الحكمة للمأمون)). ص

^٢ المصدر السابق، ص ١٣٤، ٣٦٤

^٣ المصدر السابق، ص ٣٣٣، القفطي، أخبار.. ص ١٨٧، قال القفطي: كان منقطعاً إلى بيت الحكمة للمأمون..

^٤ تزوج الخليفة المأمون من بوران بنت الحسن بن سهيل عامه على فم الصلح عام ٢٠٩هـ / ٨٢٤م وكان يوماً مشهوداً نثر فيه الحسن بن سهيل من الأموال ما لم ينثره ويفعله ملك قط في جاهلية أو إسلام، وجازاه الخليفة بحمل خراج فارس وكور الأهواز إليه سنة، (المسعودي مروج الذهب، ج ٤؛ ص ٣٠).

حنين بن إسحاق العبادي، شيخ (بيت الحكمة) وزعيم مترجميه، الذي شهد البيت في عهده ازدهاراً منقطع النظير. ومن الرواد العباقرة الأفاضل أبناء موسى بن شاكر الذين أضافوا إلى الحضارة الإنسانية ما خلفهم على مر الزمن... كل هؤلاء الأعلام والمفكرين من أبناء (مدرسة بغداد الفلسفية) يستوجب المقام أن تكون لنا معهم وقفة تفهم حقهم وتشير إلى إنجازاتهم لولا مخافة أن يطول المقام...

ووجدنا أنه من المهم أن نذكر منهم أعلاماً على أمل العودة إليهم في مناسبة أخرى:

أبو يحيى البطريق:

كان في أيام المنصور، وأمره بنقل أشياء من الكتب القديمة، والبطريق هذا وابنه يحيى كانا في خدمة (بيت الحكمة) وقيل إنهما كانا ((من جملة الوزير الحسن بن سهل))^٢.

أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري:

المنجم من حكماء الإسلام^٣، وهو أول من عمل إسطرلاباً في الإسلام، منه أخذ المسلمون هذا العلم، له كتاب في تسطيح الكرة^٤، وله ((قصيدة في النجوم

^١ وهما محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر، اللذان لمع نجمهما في (مدرسة بغداد الفلسفية) ونبغا في الهندسة والرياضيات والهيئة والفلسفة، وناقسا الكندي في هذا المضمار، ابن النديم، ص ٣٣٠-٣٣١.

^٢ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٠٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الأبناء، ج ٢، ص ١٧٤.

^٣ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٣٢، الفن الثاني المقالة السابعة.

^٤ القفطي، (أخبار العلماء...)، ص ٤٢، ابن النديم، الفهرست، ص ٣٣٢.

وغير ذلك من علوم الهيئة والفلك))^١. ولأن المنصور ((أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم))^٢. فقد قرب أبا اسحق الفزاري إليه فهو فلكي معروف، ولعله هو الذي ترجم كتاب (السند هند) للخليفة المنصور، وهو المقصود على الأغلب بروايتي صاعد الأندلسي في كتابه ((طبقات الأمم))^٣، والقفطي في كتابه (أخبار العلماء بأخبار الحكماء)، وليس محمد بن إبراهيم الفزاري، فهما في الاختصاص نفسه، وملاك الرواية هو نفسه الذي نقل في ترجمة إبراهيم بن حبيب الفزاري ولعله أيضاً أن إبراهيم هذا هو المقصود عند ابن أبي أصيبعة الذي ترجم له تحت اسم (إبراهيم بن فزارون)، قال ابن أبي أصيبعة: هو ((متطبب غسان بن عباد الذي خرج معه إلى السند، وإبراهيم بن فزارون هو شيخ بني فزارون الكتاب))^٤، وهذا ما يستدعي التحقق منه وملاحظة ملابساته للوصول إلى شيء من اليقين في أمره وأمر ابنه محمد، هذا وقد توفي أبو اسحق إبراهيم بن حبيب الفزاري عام (١٦١هـ، ٧٧٧م).

^١ المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص٣١٤.

^٢ ابن النديم، الفهرست، ص٣٣٢. القفطي، المصدر السابق ص٤٢.

^٣ ص٧٨.

^٤ ص١٧٧، يقول القفطي: (محمد بن إبراهيم الفزاري، فاضل في علم النجوم، متكلم في حوادث الحدثنان، خبير في تيسير الكواكب، وهو أول من عنى في الملة الإسلامية بهذا النوع)، وتلك صفات يمكن أن يشترك مع إبراهيم الفزاري، فإبراهيم هذا إن لم يكن أبا محمد إياه فهما إذن أما أن يكونا الابن وأباه، أو هما اسم واحد لأنهما يتفقان في الزمان والمكان والاختصاص والعمل بالنجوم وهما (أول من عمل بالإسناد وعند الخليفة المنصور، ولهم كتب في هذه الصنعة، نقلوها عن الفارسية إلى العربية، وهو الذي نقل الكتاب الذي تتخذه العرب أصيلاً في حركات الكواكب وعمل منه كتاباً يسميه المنجمون (السند هند الكبير)، وتفسيره باللغة الهندية (الدهر الداهر)، وهم يعملون به إلى أيام الخليفة المأمون فاختره له أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي وعمل منه زيجته المشهور) ١٧٧-١٧٨.

((البخاشعة))^١:

هم أسرة سريانية على رأي نسطوريوس، بطريك القسطنطينية، يغلب على أفرادها اسم (بختيشوع)، الذي كان بالأصل اسماً لجدهم الأعلى ثم توالى بعد ذلك اسماً لأحفادهم لما يقرب من ثلاثة قرون، توارثوا خلالها (صناعة الطب) ولعبوا دوراً متميزاً في ميدانه...

وبختيشوع اسم سرياني مركب من لفظتين بخت ويشوع، يرى ابن أبي أصيبعة أن ((معنى بختيشوع عبد المسيح)) لأن كلمة (بخت) في السريانية تعني (عبد) أما (يشوع) فهو اسم النبي عيسى اليسوع (عليه السلام)^٢، أما إذا كانت الترجمة على وفق لغة أهل جنديسابور الفارسية فإن لفظ (بخت) يعني عندهم (الحظ)، وبختيشوع تعني بخت أو حظ السيد المسيح، والأولى أقرب لصلتها بأصل العائلة السريانية، وليس بسكنها الجديد الفارسي...

^١ أول من أشار إلى هؤلاء الأطباء بهذا الاسم (البخاشعة) وأراد بهم أطباء ومترجمي تلك العائلة هو داود الانطاكي المؤلف الضرير (١٠٠٨هـ-١٥٩٩م) في كتابه تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب... ونهني عليها الصديق ناجي المحفوظ، والبخاشعة أطباء أفاضل استوطنوا مدينة جنديسابور ولم يزل أمرهم يقوى في العلم ويتزايدون فيه ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم حتى برزوا في الفضائل، وجماعة من الناس يفضلون علاجهم وطريقتهم على اليونانيين والهنود لأنهم اخذوا (فضائل كل فرقة فزادوا عليها عما استخرجوه من قبل أنفسهم فرتبوا لهم دساتير وقوانين وكتباً جمعت فيها كل حسنة)... ولم يزلوا كذلك حتى ولي المنصور الخلافة وبنى مدينة السلام وقد استدعى المنصور منهم جورجيس بن بختيشوع. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء...، ج ٢، ص ٣٧ فما بعد.

^٢ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤١.

وأسرة بختيشوع من أول الأسر النسطورية التي استدعاها الخليفة المنصور في فجر بغداد^١، فقد كان عميدها جورجيس بن بختيشوع من الأطباء الذين وجد المنصور فيهم الراحة في جسمه، والخلص من سقمه^٢، فتمثلت هذه العائلة في حياتها ببغداد مرحلة مهمة من مراحل تطور الفكر الفلسفي ببغداد وتأصيل علم الطب العربي الإسلامي فيها، وقيام (البيمارستانات) والمؤسسات العلمية على تراثها... فكان أولئك المبدعون وطلابهم وهم من قوميات شتى وديانات متعددة، شواهد إثبات على متانة المد (العقلاني) الذي تميز به العصر العباسي الأول، لرعاية الخلفاء للمبدعين وحميتهم للعلماء المجددين مما كان له الأثر الكبير في قيام نهضة فكرية ظلت على الدوام تترسخ وتتجدد سواء منها الطبيعية أو الفلسفية أو نحوها، تواكبت مع معطيات العصر، وكفاءة أولئك الأعلام...

تجمع المصادر التاريخية التي درست أفراد هذه العائلة (البخاشعة) أن الواحد منهم كان طبيباً حاذقاً بن طبيب حاذق^٣، كان فيلسوفاً طبيباً، وطبيباً فيلسوفاً، محباً للفلسفة وأهلها، معجباً بالطرح العقلي ودعاته، كانوا رعاة للترجمة والمترجمين، ولم أستثني منهم أحداً، يبذلون لهم بسخاء، يتابعون أخبارهم، يدعونهم للعمل بمعيتهم، عرف البخاشعة بالموودة والنبيل وحسن المعروف، وكثرة

^١ ابن نديم، المصدر السابق، ص ٣٥٤، القفطي، المصدر السابق، ص ٩٢-٩٤، ابن أبي أصيبعة، ح ٢، ص ٣٩-٤١.

^٢ القفطي، المصدر السابق، ص ٩٤، سأل واحد من الوزراء العباسيين بختيشوع: أريد أن تختار لي طبيباً ماهراً أكرمه وأحسن إليه، قال له بختيشوع لست أعرف في هؤلاء أحذق من ابني جبرائيل وهو أمهر مني في الصناعة، ص ٩٤-٩٥.

^٣ القفطي، المصدر السابق، ص ٩٤.

البذل،^١ فلم يزل أمرهم يقوى في العلم ويتزايدون فيه،^٢ ليس هذا فقط بل كانت لهم القدرة الفائقة على ترتيب العلاج المثمن وصنعه ووضع قوانينه ((على مقتضى أمزجة بلدانهم؛ حتى برزوا في الفضائل))^٣ هذا التميز جعل لبعض من مرضاهم ((يفضلون علاجهم وطريفتهم على اليونانيين والهنود لأنهم أخذوا فضائل كل فرقة فزادوا عليها عما استخرجوه من قبل أنفسهم؛ فركبوا لهم دساتير وقوانين وكتباً جمعت فيها كل حسنة))^٤

جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع الجنديسابوري:

سماه ابن أبي أصيبعة ((جورجيس بن جبرائيل))^٥ وسماه القفطي ((جورجيس بن بختيشوع))^٦ وسماه آخرون ((جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع))^٧ وهو الأصح، رئيس أطباء جنديسابور (كان فاضلاً) وقد، طبب المنصور في علقته عام (٤٨هـ - ٧٦٥م) حتى برأ منها وعاد إلى صحته وقد نقل للمنصور كتباً كثيرة من كتب اليونانيين إلى العربية^٨. وهو أبو الأطباء البخاشعة من بعده، الذين كان لهم صوت مسموع في (مدرسة بغداد الفلسفية) فيما

^١ ينقل القفطي: كان بختيشوع يهدي البخور ومعه في درج آخر فحم يتخذ له من قضبان الكرم والأترج والصفصاف المرشوش عليه عند إحراقه ماء الورد المخلوط بالمسك والكافور

وماء الخلاف والشراب العتيق، ص ٧٢-٧٣

^٢ ابن النديم، ص ٣٥٤-٣٥٥، القفطي، ص ٧٢-٧٥، ابن أبي أصيبعة، ج ٢، ص ٣٧-٧٢.

^٣ ابن أبي أصيبعة، ج ٢، ص ٦٥-٦٦.

^٤ المصدر السابق، ص ٦١-٦٦.

^٥ عيون الأنباء، ص ٣٧.

^٦ المصدر السابق، ص ١٠٩-١١١.

^٧ (حركة الترجمة في المشرق...) ص ٨٥، ٢٢٢، ٢٢٣، ٤١٨.

^٨ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٤

بعد، (له من الكتب كتاب الكناش المعروف) على ما يعرض ابن النديم ومات بعد عام (١٥٢ هـ - ٧٦٩م) وقيل حتى بلغ عام (١٦٠ هـ - ٧٧١م).

بختيشوع بن جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع:

((رئيس أطباء جند يسابور بعد أبيه جورجيس الذي استدعاه المنصور لمعالجته، وهو أبو جبرائيل ((بختيشوع الأكبر))^٢، أحضره الخليفة المهدي لمعالجة ابنه الهادي، ثم أعاده إلى جند يسابور بعد أن رأى الطبيب أبا قریش عيسى يحسده، وعز على الخيزران أم الهادي والرشيد أن لا يطب عند طبيبها أبي قریش^٣، ثم أعاده الخليفة هارون الرشيد ثانية إلى بغداد عام (١٧١ هـ / ٧٨٧م)^٤، وجعله ((رئيس الأطباء وله يسمعون ويطيعون))^٥، بعد أن جمع الأطباء حوله وهم أبو قریش عيسى وعبد الله الطيفوري وداود بن سراييون وجرجيس، الذين قالوا للخليفة مجتمعين ليس لنا أن نتكلم بحضور بختيشوع^٦، وأراد الخليفة أن يمتحنه: فقال لأحد خدمه: ((أحضره ماء دابة حتى نجربه فمضى الخادم فأحضره قارورة الماء، فلما رآه قال: يا أمير المؤمنين ليس هذا بول إنسان، فقال أبو قریش: بل كذبت هذا بول حضية الخليفة، وقال بختيشوع لم يبيل في هذه القارورة إنسان ألبته، ألا إذا انقلب هذا الإنسان بهيمة، لأنه ليس له

^١ ابن النديم، المصدر السابق ص ٣٥٤ و ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ٣٧؛ والقفطي

المصدر السابق، ص ١١١

^٢ الطبري، التاريخ، ج ٣، ص ٣٣٣-٤٢٣.

^٣ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٤١-٤٣.

^٤ المصدر السابق، ص ٤٢، القفطي، أخبار العلماء...، ص ٧٢، ابن خلكان، وفیات الأعيان،

ج ١، ص ٣٤٥.

^٥ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣، والقفطي، المصدر السابق، ص ٧١.

^٦ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢، القفطي، ص ٧١.

قوام بول الناس ولا لونه ولا ريحه، فضحك الخليفة وضحك الجميع، فانقطع هذا لخدمة هارون الرشيد وتميز في أيامه...^١

ولم يترجم له ابن النديم، ويبدو انه خلط بينه وبين حفيده (بختشيوع بن جبرائيل) فقال عنه: (خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل)^٢، وليس هو كذلك بل هو حفيده (بختشيوع الأصغر) الذي نكبل به الخليفة الواثق، وصلحت حاله عند الخليفة المتوكل حتى بارى ((الخليفة في الزي واللباس والطيب والفرش))^٣...

جبرائيل بن بختشيوع بن جورجيس بن جبرائيل الحنديسابوري:

((كان طبيباً حاذقاً نبيلاً له تأليف في الطب))^٤، خدم الخليفة الرشيد ومن بعده من الخلفاء وحل محل أبيه بختشيوع عند الخلفاء، (كان مشهوراً بالفضل جيداً في المداواة، عالي الهمة، رفيع المنزلة، كثير الإحسان)^٥، توفي (٢١٣/ ٨٢٨ م)، يقول القفطي: ((إن من أدب الطبيب إذا كان خاصاً بالملك، أن لا يخدم أحداً من أصحابه إلا بأمره، ولما أفاق جعفر من مرضه، قال للبختشيوع أريد أن تختار لي طبيباً ماهراً أكرمه وأحسن إليه، قال بختشيوع: لست أعرف في هؤلاء أحذق من ابني جبرائيل وهو أمهر مني في الصناعة، فقال له: أحضره، فلما

^١ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢-٤٣.

^٢ الفهرست، ص ٣٥٤، وقد صحح هذا القفطي في كتابه (أخبار العلماء...)، وقال: الحقيقة نه لا رأى المسفاح ولا المنصور، وفصل القصة في ص ٧١-٧٢، وقد فصل الدكتور رشيد الجميلي أمر هذه العائلة في كتابه (حركة الترجمة في المشرق الإسلامي...)، ص ١٩١-٢٢٣.

^٣ القفطي، المصدر السابق، ص ٧٢.

^٤ القفطي، المصدر السابق، ص ٩٣-١٠٢.

^٥ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٣.

حضر شكى إليه مرضا كان يخفيه، فدبره في مدة ثلاثة أيام وبرا، فأحبه هذا مثل نفسه وكان لا يصبر عنه ساعة ومعه يأكل ويشرب))^١... ثم انتقل جبرائيل إلى القصر العباسي، بعد أن نجح على وفق قصة درامية في علاج صبية من صبايا الخليفة هارون الرشيد ((بعد أن تمطت ورفعت يدها فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها))، ولم ينفع معها علاج الأطباء، وبعد أن عرف جبرائيل علتها عالجهما بطرق نفسية مصحوبة بإجراء عملي، فقد هرول نحو الصبية أمام جمع غفير من أهلها ((ونكس راس ومسك ذيلها كأنه يريد أن يكشفها فانزعجت الجارية، ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها وبسطت يدها إلى أسفل ومسكت ذي... ٠٠٠))^٢ أسهم جبرائيل في الأحداث في البلاط العباسي كما أسهم أبوه من قبل وشهدا نكبة البرامكة سنة (١٨٧ / ٨٠٢ م)، كان جعفر قد دخل على الرشيد من دونما أن يستأذن على عادته، فقال الرشيد لجبرائيل وكان جالسا في بلاطه: ((يا جبرائيل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذن؟)) فقال جبرائيل: لا، ولا يطمع في ذلك، قال الرشيد: فما بالنا يدخل علينا بلا إذن؟))^٣، وما هي إلا أيام حتى قتل جعفر البرمكي ونكل بأهله، ومن الطريف أن الخليفة هارون الرشيد على عظمته كان يقول ((كل واحد من ولدي علي رقيب، فمسرور رقيب المأمون وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين و...))^٤، ولذا أجلسه المأمون في بيته عام ٢٠٥هـ بعد أن رجعت إليه الخلافة، ومنعه من مزاوله مهنته^٥، إلا أنه سرعان

^١ انقضي، المصدر السابق، ص ٩٤.

^٢ انقضي، المصدر السابق، ص ٩٤، ابن أبي أصيبعة، ج ٢، ص ٤٤.

^٣ الطبري، التاريخ، ج ١١، ص ٦٦٧، وانظر ج ١١، ص ٧٣١، وفي الطبري تفاصيل مهمة عن مكانة هذا الطبيب ودوره في الحياة العامة زمن الرشيد وزمن ابنه الأمين والمأمون، وانظر على سبيل المثال ج ١١، ص ٧٣٥، والمسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٥٥.

^٤ الطبري، المصدر السابق، ج ١١، ص ٧٣٥.

^٥ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥، انقضي، المصدر السابق، ص ٩٨.

ما عاد الود بينهما حتى ((صار المأمون إذا خاطبه كناه بأبي عيس جبرائيل، وأكرمه زيادة على ما كان أبوه يكرمه))^١... كان ابن أبي أصيبعة من المعجبين بشخصية جبرائيل بن بختشيوخ فأفرد له ترجمة ضافية وقال: ((إن البعض من المصنفات الفلسفية قد نقلت باسمه أيضاً))^٢ وذلك لما عرف عنه ((من كتابات في هذا الحقل أولاً وللجمع بين الطب والفلسفة ثانياً))^٣...

بختشيوخ بن جبرائيل بن بختشيوخ:

هو بختشيوخ (الأصغر) (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م)، وآخر البخاشعة الذين كان لهم صولة وجولة في رحاب الفكر في (مدرسة بغداد الفلسفية) في تأسيساتها الأولى وعند نشأتها، ((كان طبيباً حاذقاً ابن طيب ابن طيب))^٤، ((بلغ من عظمة المنزلة والحال وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من سائر الأطباء الذين كانوا في عصره))^٥، هو ممن أسهم في ثقافة جيله بذل بسخاء لرعاية المترجمين والنقله للكتب الطبية والفلسفية على حد سواء، كانت رعايته هذه سبباً في إشاعة علوم كثير جلبت مخطوطاتها من مضانها، وترجمها المترجمون، فقد ((نقل حنين بن إسحاق لبختشيوخ بن جبرائيل كتباً كثيرة من كتب جالينوس إلى اللغة السريانية والعربية))^٦، فكان واحداً من أشهر رعاة حركة الترجمة بصورة خاصة ومجمل

^١ القفطي، ص ٩٩، ابن أبي أصيبعة، ج ٢، ص ٤٥.

^٢ عيون الأنباء، ص ٤٣-٦٢.

^٣ وجدته الدكتور رشيد الجميلي أيضاً (أحد العاملين على ازدهار حركة الترجمة، مدفوعاً في ذلك برغبته في الاطلاع على تراث اليونان الطبي لزيادة خبرته وتجاربه فيه فأحاط النقله برعايته)، ص ١٨٣-١٨٤.

^٤ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء... ج ٢، ص ٦٢-٧٢.

^٥ المصدر السابق، ص ٦٢، وانظر البيهقي، أخبار العلماء...، ص ٧٢-٧٣.

^٦ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٢.

الثقافة في (مدرسة بغداد الفلسفية) عامة، وكان له ((أثر مهم في زيادة عدد الكتب الطبية اليونانية... وذلك نتيجة لتكليفه أبرز النقل في عصره بإعداد ترجمات وبخاصة تلك التي تضمنت بحوث جالينوس في علم التشريح))^١...

وعلى الجملة فقد جمع البخاشعة من جدهم جرجيس على زمان المنصور مؤسس بغداد ومدرستها الفلسفية وحتى حفيدهم بختشيوخ الأصغر قد جمعوا في عقولهم وعملهم وممارساتهم كل ثقافة عصرهم، وقل أن يكون لهم في ذلك نظير، فقد كان العلماء يبزون في ناحية من النواحي، ولكن هؤلاء القوم قد أحاطوا بثقافة عصرهم وعلومه فكانوا أطباء، ندماء، فلاسفة، مؤلفين، مترجمين، رعاة للترجمة، يسخون بالعتاء لشراء مخطوطة، ولا يباليون في البذل لمن يقوم بنقل كتاب، وهم قوم سريان نصارى، ليس من دين أهل البلد، مما يدل على تسامح الناس وعظمة الإسلام...

سلم صاحب بيت الحكمة:

هكذا جاء ذكره عند ابن النديم في الفهرست، وبهذا الاسم ذكره ابن أبي أصيبعة، ولم يذكر أي من المعنيين بعلم الرجال اسم أبي سلم أو جده أو نسبه أو أي شيء يمكن الاستدلال منه على هوية هذا الرجل الذي شغل منصباً مهماً في بيت الحكمة فمرة هو صاحبه^٢، ومرة أمينا على الكتب التي نقلت إلى المأمون من القسطنطينية ثم صار ينقل مع سهل بن هارون من الفارسية إلى العربية، وقد نقل

^١ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق ج ٢، ص ٦٢-٧٢، د. عبد الجبار ناجي، بيت الحكمة، رؤية تاريخية، ص ١٤، د. رشيد الجميلي، حركة الترجمة في المشرق الإسلامي...، ص ١٥٢، ص ١٨٤-١٨٦.

^٢ ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٤، ٣٠٤، ٣٢٧، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء...، ص ١٤٣.

معه جوامع لكتاب ((كليلة ودمنة))^١، وقام سلم بعمل عظيم لبيت الحكمة حين شارك مع الوفد المسافر إلى ملك الروم للتحري واختيار الكتب والمخطوطات من (العلوم القديمة المخزونة في بلد الروم)، فقد وجد المأمون في منامه مرة ((كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً حمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، حسن الشمائل، جالس على سريره، قال المأمون: وكأنني بين يديه قد ملئت له هيبة، فقلت له: من أنت؟، قال: أنا أرسطوطاليس، فسرت به وقلت: أيها الحكيم أسألك، قال: سل، قلت: ما الحسن؟، قال: ما حسن في العقل، قلت: ثم ماذا؟، قال: ما حسن في الشرع، قلت ثم ماذا؟، قال: ما حسن عند الجمهور، قلت: ثم ماذا؟، قال: لا ثم...، فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب، فأن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون... فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فاخذوا مما وجدوا ومما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل^٢)...

هكذا وبهمة المأمون وبجهد آبائه من قبله وبهمة أولى الأمر في البلاط ورعاة العلم والمهتمين بنقل الفكر الآخر إلى بلاد الإسلام، توسع العمل في بيت الحكمة، وزادت كتبه وتعددت أقسامه حتى وجدنا: محمد وأحمد والجسن أولاد شاعر المنجم يبذلون الرغائب ((وأنفدوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم فجاؤهم بطرائف الكتب وخرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارتماطيقى والطب... وانهم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن

^١ ابن النديم، المرجع السابق، ص ١٢٠، وقارن الديوجي، بيت الحكمة، ص ٣٤-٣٦، د. رشيد الجميلي، الترجمة...، ص ٢٩، ٩٢، ١٠٦.

^٢ ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٢٧، انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء...، ص ١٤٣.

إسحاق وحيث بن الحسن وثابت بن قررة وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار
للنقل والملازمة))^١...

سهل بن هارون:

((صاحب بيت الحكمة ويعرف بابن راهبون الكاتب))^٢، من البلغاء^٣، ومن
أعضاء وفد المأمون إلى ملك الروم لاختيار الكتب^٤، كان ((ممن يعمل الأسمار
والخرافات على أسنة الناس والطير والبهائم، على غرار كتاب (كليلة ودمنة)^٥،
كان من فصحاء بيت الحكمة يعتمد عليه المأمون وصار شريكاً لسلم صاحب بيت
الحكمة، وينقل عنه ابن النديم تفلسفاً في عدد حروف العربية الثمانية والعشرين
حرفاً، فهي على رأيه (على عدد منازل القمر)، وإن الكلمة في العربية غاية ما
تبلغ سبعة حروف (على عدد النجوم السبعة) وإن حروفها الزوائد اثنا عشر
حرفاً على عدد البروج الاثني عشر^٦....

سعيد بن هريم الكاتب:

^١ ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٠٣-٣٠٤.

^٢ ابن النديم، الفهرست، ص ١٣.

^٣ المصدر السابق، ص ١٣٩.

^٤ المصدر السابق، ص ٣٠٤.

^٥ انظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص ٢٦٦، ويذكر الحموي إن له من التصانيف (كتاب
ثعلبة وغفراء) و(كتاب النمر والثعلب)، و(كتاب ندود وودود ولدود)، ويورد أبو عثمان
الجاحظ رسالة سهل بن هارون بالبخل كان قد أرسلها إلى ابن عمه من آل راهبون، وأرسل
نسخة منها إلى الوزير الحسن ابن سهل، فذمها الوزير ولم يكرمه، البخلاء، ص ٦-٩، ابن
النديم، ص ١٣٣.

^٦ ابن النديم المصدر السابق، ص ١٣.

كان شريك سهل بن هارون في بيت الحكمة وكان بليغاً فصيحاً مترسلاً ويحكي عنه الجاحظ في مواضع، وله من الكتب (كتاب الحكمة ومناقعها) ومن المترجمين البارزين في بيت الحكمة وله شأن فيه^١...

يحيى بن البطريق:

من النقلة المجيدين الذين أسهموا في عملية الانفتاح على الفكر الآخر وصيروا عصر المأمون عصرًا ذهبيًا، فازدهرت في زمانهم حركة الترجمة نتيجة لإبداعهم غير المحدود فاحتضنه ورفاق له (بيت الحكمة)، وساروا تحت سقف هذه الأكاديمية الثقافية نحو الأفضل والأنفع، نقل ابن البطريق (كتاب طيماوس) بثلاث مقالات، وهو من كتب أفلاطون التي أصلها حنين بن اسحق فيما بعد^٢، وعدد ابن النديم جملة كتب كان قد نقلها ابن البطريق أو أسهم في إعدادها في (بيت الحكمة)^٣... ووجد ابن أبي أصيبعة أن ابن البطريق ((كان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية، وإنما كان لاتينياً يعرف لغة الروم))^٤، ومع هذا فقد كان يحيى بن البطريق وأبوه البطريق المعروف زمن المنصور وابنه المهدي ممن أسهموا بإسهامات خالدة في حركة الترجمة في (مدرسة بغداد الفلسفية) وممن كان لهم الصوت المسموع في (بيت الحكمة)، فهو كما وجده ابن جلجل أميناً على الترجمة حسن التأدية للمعاني وترجم كثيراً من كتب الأوائل

^١ المصدر السابق، ص ١٣٤.

^٢ المصدر السابق، ص ٣٠٧.

^٣ الفهرست، ص ٣٠٤، ٣٠٧، ٣١٢، ٣٤٩.

^٤ عيون الأنبياء...، ج ٢، ص ١٧٤.

وهو الذي ترجم كتاب أرسطوطاليس ((السياسة في تدبير الرياسة))^١، و((كانت الفلسفة أغلب عليه من الطب))^٢، توفي ابن البطريق عام (٢٠٠ / ٨١٥م)...

الحجاج بن يوسف بن مطر الكوفي:

من العاملين المعروفين والمترجمين الجيدين في بيت الحكمة، فسر ونقل العديد من الكتب من اليونانية إلى العربية تلبية لطلبات المأمون، كان من أهمها (كتاب المرأة لأرسطو) و(كتاب اتولوجيا لارسطو) وترجم (كتاباً لاقليدس)^٣، وقيل أن الحجاج بن يوسف كان قد نقل كتاب (المجسطي) لبطليموس، وهو كتاب من ثلاث عشرة مقالة ((وأول من عنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك، وفسره جماعة فلم يتقنوه، فندب (البرمكي) لتفسيره أبا حسان وسلم صاحب بيت الحكمة فأتقناه واجتهدا في تصحيحه))^٤، والحجاج أيضاً كان من جملة الوفد المسافر إلى اليونان لاختيار الكتب الجياد، ويعد الحجاج بن يوسف من أهم النقلة لكتاب (أصول الهندسة) لاقليدس، قام بنقله ((نقلين أحدهما يعرف بالهاروني -نسبة إلى الخليفة هارون الرشيد- وهو الاول، ونقلًا ثانيًا وهو المأموني -نسبة إلى الخليفة المأمون- وعليه المعول))^٥، توفي الحجاج بن مطر بن يوسف سنة (٢٢٠ / ٨٣٥ م).

^١ طبقات الأطباء والحكماء، ص ٦٧.

^٢ القفطي، ص ٢٤٨، ويقول أيضاً (يوحنا ابن البطريق الترجمان كان أميناً على الترجمة حسن التأدية للمعاني، أكن اللسان في العربية).

^٣ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٠٤، ص ٣١٢، ٣٢٣، ٣٢٥.

^٤ ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٢٧.

^٥ ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٢٥.

يحيى أو بوحنّا ابن ماسويه:

كان معظماً ببغداد، جليل القدر في (مدرسة بغداد الفلسفية)، ولاء الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة، فكان أميناً على الترجمة، رتب له كتاباً حاذقاً يكتبون بين يديه، خدم الرشيد والأمين والمأمون ومن بعدهم إلى أيام المتوكل^١، ((له كلام حسن، وتصانيف مشهورة))^٢ تتمثل فيه مقدمات النضج في الفكر ومستلزمات الأخذ الهادف من الحضارات السائدة، كان قد نضج على يديه تلميذ نجيب من تلاميذ (بيت الحكمة) هو حنين بن اسحق^٣، وإن لقراءة فاحصة لقائمة الكتب التي أنتجها تؤكد إن عصره متميز بحق، له من الكتب، كتاب الكمال والنّمام، كتاب دفع ضرر الأغذية، علاج الصداع، (علاج الصوت والبعبة) و(كتاب السواك والسنونات) كتابه (محنة الطبيب) من أمتع الكتب وغيرها كثير^٤.

الفضل بن سهل بن نوبخت:

((كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد، ولهذا الرجل نقل من الفارسية إلى العربية ويعول في عمله على كتب الفرس))^٥، وهو ((مشهور من أئمة المتكلمين، وله ذكر في كتب المتكلمين))^٦، نقل ابن النديم من كتابه (النهضتان) مقتطفات من صنوف العلوم وأنواع الكتب^٧، وتلك إشارة تعني فيما تعنيه قوة

^١ ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٥٤.

^٢ القفطي، أخبار العلماء، ص ٢٥٢-٢٥٤.

^٣ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء وطبقات الأطباء، ج ٢، ص ١٢٣-١٢٥.

^٤ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٤.

^٥ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٢٣.

^٦ القفطي، أخبار العلماء...، ص ١٦٨-١٦٩.

^٧ ابن النديم، المصدر السابق، ص ٢٩٩-٣٠١.

معرفة هذا العالم بعلوم النجوم والفلك ونحوها من العلوم الأوائل، التي كانت (مدرسة بغداد الفلسفية) بوقفة تتصهر فيها العلوم للإنتاج الأحسن...، والفضل النوبختي هذا من عائلة معروفة بالتهجيم وهو غير الفضل بن سهل السرخسي ذي الرئاستين (السيف والوزارة) زمن المأمون، ولكنهما كانا في عصر واحد ويخدمان خليفة واحداً وهو المأمون، وكلاهما له اهتمام واختصاص بالنجوم والفلك وكلاهما فارساني ولكن الأول يعرف بالنوبختي والآخر يعرف بالسرخسي نسبة إلى مدينة سرخس في خراسان... وكثيراً ما يختلط الأمر في أخبارهما لاسيما في العلوم والفلك وليس السياسة والرئاسة.

الفضل السرخسي الوزير، كان ينقل عن الفارسية بإتقان وكذلك الفضل النوبختي ينقل عن هذه اللغة بإتقان أيضاً.

الحسن بن سهل بن نوبخت:

ذكره ابن النديم وقال ((له من الكتب كتاب الأنواء))^١، وقال القفطي ((الحسن بن سهل بن نوبخت، كان مشاركاً في هذه العلوم (علوم الأوائل)، وآل نوبخت كلهم فضلاء لهم فكرة صالحة ومشاركة في علوم الأوائل))^٢، والحسن بن سهل الوزير السرخسي هو غير الحسن بن سهل بن نوبخت وإن اشتركا في كثير من القواسم، وتشابها في كثير من الأحداث، ولكن يبدو أن السرخسي كان قريب الإسلام، أسلم على يد المأمون، كما أسلم أخوه الفضل على يده أيضاً، بعد أن نقل من الفارسية إلى العربية كتاباً فاعجب بفهمه وبعبارة يحيى بن خالد

^١ الفهرست، ص ٣٣٤.

^٢ أخبار العلماء...، ص ١١٤.

البرمكي، ففتبأ له بأنه سيبلغ مبلغاً رفيعاً، ولكن آل نوبخت أبعد إسلاماً، فقد أسلم جدهم نوبخت منذ عهد المنصور وقد تنبأ نوبخت هذا للمنصور بانحدار حركة ((محمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم، وصدقت نبوءته))^١.... وعلى كل حال فهؤلاء الأشخاص الأربعة إن كانوا هم أربعة كذلك فقد كان لهم شأن عظيم في (مدرسة بغداد الفلسفية)، وإن كانا هما الوزيرين فليس هناك اختلاف كثير.

عمر بن الفرخان الطبري:

((أبو حفص عمر بن حفص، (المفسر لكتاب الأربعة لبطليموس) ونقلها له ابن البطريق، وله من الكتب، (كتاب المحاسن) وكتاب (إنفاق الفلاسفة) وخلافهم في خطوط الكواكب)، وابنه محمد أحد أفاضل المنجمين وله كتب))^٢ أيضاً، كان ((أحد رؤساء الترجمة، والمتحققين بعلم حركات النجوم وأحكامها))^٣ عالماً حكيماً، كان منقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي، وبعد نكبة البرامكة، انقطع إلى الفضل بن سهل وزير المأمون،... وعمر ابن الفرخان هذا أحد النقلة الأربعة الحذاق في الإسلام^٤، أسهموا في ازدهار الحركة الثقافية في بغداد كان لهم قدم صدق في (مدرسة بغداد الفلسفية) وأساس متين في (بيت الحكمة) لا يقل أهمية من دور حنين بن إسحاق، والكندي، وثابت بن قره، إن لم يكن متمماً لهم ومؤسساً مثلهم....

^١ الجهشيارى، الوزارة والكتاب، ص ٢٣،

^٢ فصل ذلك، الطبري، التاريخ، ج ١٠، ص ٢١٥٠، أحداث عام ١٤٥.

^٣ ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٣٢، الققطي، أخبار العلماء، ص ١٦١-١٦٢.

^٤ الققطي، أخبار العلماء، ص ١٦١.

^٥ صاعد، الأندلس، طبقات الأمم، ص ٧٨.

محمد بن موسى الخوارزمي:

((كان منقطعاً إلى خزانة (بيت الحكمة) للمامون، من أصحاب علوم الهيئة، كان الناس يعولون على زيجه الأول والثاني، ويعرفان بالسند هند))^١، وهو ((الزيج المشهور ببلاد الإسلام))^٢، الذي اختصره من كتاب (السند هند الكبير) الذي ترجمه إبراهيم الفزاري^٣، وكان كتاب الخوارزمي (الجبر والمقابلة) ألفه للخليفة المأمون (لإيضاح ما كان مستبهماً، وتسهيل ما كان مستوعراً، كتاباً مختصراً لما يلزم الناس من الحاجة إليه)^٤، ولذا يعد الخوارزمي من رجال بيت الحكمة المعروفين بالرياضيات والفلك الذين ابتكروا علم الجبر والمقابلة، وما زال باسمه حتى اليوم، وإليه يعود الفضل في تناول الأرقام وشيوعها، فقد كان كتابه في الحساب الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة وقد نقل قديماً إلى اللاتينية تحت اسم (الغورتمي) نسبة إلى الخوارزمي^٥، وما يزال اسمه يذكر على أنه المخترع للطريقة الشائعة في تفسير المعادلة الجبرية من الدرجة الثانية، وقد ظل كتاب الخوارزمي أقدم كتاب في موضوعه، وقد ترجمه إلى اللاتينية جيرارد الكريموني، فقدم به إلى أوروبا علم الجبر مرتبطاً بكلمة (الجبر) وهي الاسم العربي لهذا العلم، وقد ظل هذا الكتاب مرجعاً لهذه الدراسات بالجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر^٦....

والكلام في سيرة هذا العالم واسعة نكتفي بهذا القدر...

^١ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٣٣.

^٢ صاعد، الأندلس، طبقات الأمم، ص ٧٨.

^٣ المصدر السابق، ص ٧٨-٧٩.

^٤ الخوارزمي، كتاب الجبر والمقابلة، ص ١٦.

^٥ دراسات تاريخية، ص ٧٢، الجميلي، حركة الترجمة...، ص ٣٩٢.

^٦ د. الجميلي، حركة الترجمة...، ص ٣٩٦، وهوامش، ص ٣٩٥-٣٩٧، بهذا المصدر.

ولو استرسلنا في إحصاء ودراسة العلماء والعاملين في أكاديمية (بيت الحكمة) من أول مقدمات العمل فيها وحتى ظهور البيت في زمن الرشيد وتعمقه وازدهاره زمن المأمون وصيرورته واستمراره إلى ما بعد الفترة التي حددتها الدراسة للتأسيسات الأولية للفكر الفلسفي في بغداد (١٤٥/٢٥٢هـ - ٧٦٢/٨٦٦م) لفاض البحث وذهبت الفائدة، غير أن هذه الإشارات لا تغمط حق أحمد بن يحيى البلاذري المؤرخ العبقري، مؤسس علم التاريخ صاحب كتابي (أنساب الأشراف) و(فتوح البلدان) المتوفى عام (٢٧٩/٨٩٢م)، فقد كان أحد المترجمين في بيت الحكمة (وكان ناقلًا إلى العربية من الفارسية)^١، وكذلك لا يتخطى القسم الذي ترأسه علان الوراق النسابة، في التصحيف والتجليد والتذهيب، وما إلى هذه العملية من صلة، ولا ما أضافه عبد المسيح بن ناعمه الحمصي (٢٢٠/٨٣٥ م)، ولا أي من أقاربه وعائلته، والدراسة تتحني احتراماً إلى كل من عمل في بيت الحكمة وأضاف إلى الفكر في (مدرسة بغداد الفلسفية)، مثل المترجم اسحق بن أبي الحسن بن إبراهيم، وعلي بن يحيى المنجم، وحش بن الحسن الاعسم، وأحمد بن محمد السرخسي الفيلسوف الأخير في البناء التأسيسي (مدرسة بغداد الفلسفية) (ق ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م)، بعد شيخه الكندي... على أن هذه الدراسة سوف تفصل القول في المبحث القادم في أحوال (الفلاسفة المترجمين) الذين كان لهم القدح المعلى في مسيرة الفكر الفلسفي في بغداد وتأسيساته الأولى.

ثم حمل راية (مدرسة بغداد الفلسفية) عالية ورسمها عالمية يشيد بمكانتها العلماء في أرجاء الدنيا وينهل من جودها أهل المعرفة في أنحاء المعمورة مؤسس الفلسفة العربية وأول من أطلق كلمة (فلسفة) على هذا المعنى، يعقوب بن إسحاق الكندي...

^١ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٧١.

المبحث الثالث

الفلاسفة المترجمون

حنين بن اسحق (ولد ١٩٤هـ / ٨٠٩م - ٢٦٠هـ / ٨٧٣م)

أبو زيد حنين بن اسحق العبادي^١، كان فصيحا لسنا، بارعا، باللغة اليونانية والسريانية والعربية^٢ والفارسية^٣، عصاميا، أنشأ نفسه بنفسه وباقتدار عال، جاب الآفاق منصرفا إلى التعليم والتعلم ومعرفة لغات أهل الحضارات في زمانه والتبحر في علومهم، وأول ما حصل له في الاجتهاد والعناية في صناعة الطب، فقرأ على يوحنا بن ماسويه، ولكن هذا طرد حنينا من مجلسه فخرج منه ((باكيا مكروبا))^٤، ويفسر ابن أبي أصيبعة أسباب هذا الطرح بسببين الأول كان حنين إذ ذاك صاحب سؤال، وذلك يصعب على يوحنا والسبب الثاني أن يوحنا كان يباعده من قلبه، لأن حنينا كان من أبناء الصيارفه من أهل الحيرة، وأهل جنديسابور، وخاصة متطبوها ((ينحرفون عن أهل الحيرة، ويكرهون أن يدخل في صناعتهم

^١ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٨١ فما بعد، ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٤، ومواد أخرى متفرقة، لدى ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء...، ج ٢، ص ١٢٩ فما بعد، القفطي، أخبار الحكماء...، ص ١١٧، فما بعد، ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأمة، ص ٥٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢١٧-٢١٨.

^٢ ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٥٢، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء...، ج ٢، ص ١٣٩، ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٧-٢١٨.

^٣ القفطي، المصدر السابق، ص ١١٨، ٤١، ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٠، القفطي، المصدر السابق، ص ١٢٠.

^٤ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ١٤٠، القفطي، المصدر السابق، ص ١٢٠.

أبناء التجار))^١، هذا الأمر دفع حنيناً أن يجهد نفسه أكثر فأكثر للحصول فسافر أولاً إلى جنديسابور للدراسة وتحصيل الطب ثم ((قام مدة في البصرة))^٢، يدرس اللغة العربية على طلاب الخليل وسيبويه^٣، وأدخل كتاب (العين) بغداد^٤ ثم أتقن صناعة الطب ((وكان فاضلاً في هذه الصناعة))^٥ كان فيها إماماً^٦ ((حسن النظر في التأليف والعلاج، ماهراً في صناعة الكحل))^٧، ثم عاد قوياً متمكناً ينافس أستاذه السابق يوحنا بن ماسويه فطلب ((هذا اللطف وإصلاح ما بينهما))^٨ فكان لابن ماسويه ما أراد ولازمه حنين ((منذ ذلك الوقت وتتلذذ له واشتغل عليه بصناعة الطب))^٩ ثم برع في الترجمة، بل كان شيخ المترجمين، وعنوان عصره، وكان من أبرع من ترجم بالمعنى، ومن أدق من تصدى للكلمات والمصطلحات الصعبة التي لا مثيل لها في اللغة العربية، ووجد لها اللفظ

^١ عيون الأنباء، ج ٢، ص ١٣٩.

^٢ المصدر السابق، ص ١٣٩، الققطي، ص ١١٨.

^٣ ذكر ابن صاعد، ص ٥٥، وابن أبي أصيبعة، ص ١٣٩، أن شيخه في العربية كان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ / ٧٩١م) وهو ليس صحيحاً لأن حنيناً كان قد ولد بعد وفاة الخليل بما يقرب من عشرين سنة، ولد الخليل بن أحمد الفراهيدي عام (١٠٠هـ / ٧١٨م) وتوفي عام (١٧٥هـ / ٧٩١م) (إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٤١، أما سيبويه فقد كان قد مات على أرجح الأقوال سنة (١٨٠هـ / ٧٩٧م) الخطيب البغدادي، التاريخ ج ١٢، ص ١٩٨، وهو أيضاً مات قبل ولادة حنين، وأقرب الطلاب الأخفش (ت ٢١٥هـ / ٨٢١م) ومحمد بن سلام (ت ٢٣١هـ / ٨٤٥م) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١٢، ص ١٩٦.

^٤ ابن صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص ٥٥.

^٥ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٢.

^٦ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٢.

^٧ انقطني، المصدر السابق، ص ١١٨. ابن أبي أصيبعة، ج ٢، ص ١٤٢.

^٨ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٩.

^٩ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٣.

المناسب، دحض وبصيغة ملموسة أقوال الكثيرين ممن كان يتهم أولئك المترجمين الأوائل. بأنهم كانوا آلة للنقل في ترجماتهم لمصنفات الأمم الأخرى ولا نبوغ فيهم، فكان حنين بن إسحاق مترجماً بالمعنى وملخصاً للكتب شارحاً لبعضها، حتى غدت تراجمه وشروحه وملخصاته وكذلك كان ابنه اسحق وابن أخته حبش الاعسم، مدرسة متفردة في هذا الفن طبعت العصر بطابعها، سهلة التناول خالية من التعقيد، مع دقة بالتعبير وخلو من الحشو والغموض إذا ما قورنت بأصلها اليوناني^١، وكان حنين ((أشد الجماعة اعتناء بتعريبها (الكتب اليونانية)...

ولولا ذلك التعريب لما أنتفع أحد بتلك الكتب... ولا جرم فإن كل كتاب لم يعربوه باق على حاله ولا ينتفع به))^٢...

ساح حنين بن اسحق البلاد في جمع الكتب القديمة، ودخل بلد الروم، وأكثر نقوله لبني موسى^٣، و((أنه سافر إلى بلاد كثيرة، ووصل إلى أقصى بلاد الروم يطلب الكتب التي قصد نقلها))^٤، وقعد في جملة المترجمين يكتب الحكمة واستخرجها إلى السرياني وإلى العربي^٥، إلا أن جل عنايته كانت مصروفة إلى نقل كتب جالينوس الطبية وكان أقل عناية بالكتب الحكمية، مثل كتب أرسطوطاليس وغيره من الحكماء، حقاً كان ماهراً في دراسة وترجمة كتب جالينوس، ((ثم اختير للترجمة وائتمن عليها))^٦، الأمر الذي كلفه الخليفة المأمون يوم كان فتى السن (وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى

^١ فصل هذا وأشار إليه بإسهاب د. رشيد الجميلي، حركة الترجمة في الشرق الإسلامي...، ص ٢٤٥-٢٧١.

^٢ ابن خلكان، وفيات الأعيان...، ج ٢، ص ٢١٧.

^٣ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٢، ابن جلجل، طبقات الأمم، ص ٦٩.

^٤ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء...، ج ٢، ص ١٤٣.

^٥ القفطي، أخبار الحكماء، ص ١١٧-١١٨.

^٦ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ١٤١، وكذلك القفطي، المصدر السابق، ص ١١٩.

العربية وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره... وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل^١ كما كان محمد واحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم، ((يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحق... في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة))^٢، ونقل حنين الكتب الطبية إلى جبرائيل بن بختيشوع سيما كتاب جالينوس في التشريح، ((ولم يزل أمره يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفسير حتى صار ينبوعاً للعلوم ومعدناً للفضائل))^٣، لم يطنب أهل الصنعة بمدح ترجمات أحد وعلم آخرين مثلما أفردوا لحنين بن اسحق المساحات الواسعة من كتبهم واثقوا عليه الثناء الجميل فقد كان قد اطلع على أسرار العلم في مدرستي الإسكندرية ولغتها اليونانية وجنديسابور ولغتها الفارسية فكان جليلاً في الترجمة ((له تواليف نافعة بارعة))^٤، و((هو الذي أوضح معاني كتب أبقراط وجالينوس ولخصها أحسن تلخيص، وكشف ما استغلق منها، وأوضح مشكلها... وعمد إلى كتب جالينوس فاحتذى فيها حذو الإسكندرانيين، وصنعها على سبيل المسألة والجواب فأحسن في ذلك))^٥، وتقصى حنين بن اسحق كتب الحكمة ووفق في تحصيلها غاية التوفيق ((وأحكم اليونانية عند دخوله إلى تلك الجهات وحصل نفائس هذا العلم وعاد إلى بغداد يلزم بنى موسى بن شكر، ورغبوه في النقل من اللسان اليوناني إلى العربي وغرموا على ذلك الجمل العظيمة، ولم يزل معظماً مكرماً في زمانه

^١ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ١٤٣، ابن النديم، المصدر السابق، ص ٣٠٤.

^٢ القبطي، أخبار الحكماء...، ص ١١٨-١٢١، الشهرستاني، ص ٣٢٠، ص ٥، السبكي، طبقات...، ج ٣، ص ٢٧.

^٣ القبطي، أخبار الحكماء...، ص ١١٨-١٢١، الشهرستاني، الملل والنحل...، ج ٣، ص ٥، السبكي، طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٢٧.

^٤ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٣.

^٥ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص ١٦٣.

مشاراً إليه في هذا الشأن))^١ فكان من أبرز الناس في (مدرسة بغداد الفلسفية) في تأسيساتها الأولى وبفضله قامت حركة الترجمة قويةً أصيلةً، فكان من المؤسسين الخالدين الذين قعدوا قواعد حركة الترجمة ومضى بها إلى حيث الكمال وأضحت في عهده حركة تقدمية من شأنها مد الحضارة بمقومات التقدم والرقي، الأمر الذي وسم (مدرسة بغداد الفلسفية) بوسمه، وطرز حركة الترجمة في بغداد باسمه، علماً من أعلام الترجمة...

استعان حنين بخطاطين وكتاب ومجلدين ووراقين لإنجاز أعماله هم خير الناس في عصره كان منهم (رجل يعرف بالأزرق) يقول ابن أبي أصيبعة: ((رأيت أشياء كثيرة من كتب جالينوس وغيره بخط الأزرق، وبعضها عليه تتكيت بخط حنين بن إسحاق باليوناني، وعلى تلك الكتب علامة المأمون))^٢، وكان حنين يوصي الأزرق هذا أن يكتب ((بحروف كبار ويخط غليظ في أسطر متفرقة))^٣ وورق غليظ لتعظيم حجم الكتاب، وبالتالي زيادة أجره...

ومن الذين نقل لهم حنين وترجم الكتب التي رغبوا فيها غير ما ذكرنا الأطباء البخاشعة والطبيب الطيفوري والوزير محمد بن عبد الملك الزيادات وغيرهم، ووقفت كتب التراجم على فهارس مفصلة للكتب التي ترجمها حنين بن اسحق من اللغات الحية في عصرها، أو التي أصلها أو الكتب التي ألفها بنفسه فكانت كبيرة وكثيرة وجديرة أن تكون أصلاً من أصول علوم الطب والفلسفة وغيرها من العلوم...

وقد بولغ في الأجر الذي كان يأخذه حنين جراء عمله، يقول ابن أبي أصيبعة ((ومما يحكى عنه أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من

^١ ابن النديم، ص ٣٠٤.

^٢ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٣-١٤٤.

^٣ المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٩.

الكتب))^١ وبشكك ابن أبي أصيبعة بأخلاق حنين للحصول على أكبر كمية من الذهب جراء أعماله فيقول: ((لقد وجدت في هذه الكتب، كتباً كثيرة... وهي مكتوبة بحروف كبيرة ويخط غليظ في أسطر متفرقة، وورقها كل ورقة منها بغلظ ما يكون من هذه الأوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات أو أربع)) ويستمر ابن أبي أصيبعة في غمزه فيقول: ((وكان قصد حنين حينئذ بذلك تعظيم حجم الكتب وتكثير وزنه لأجل ما يقابل له من وزنه دراهم،)) وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد أي أنه كان يرغب بالتحايل على المستفيدين من الترجمة بزيادة حجم الكتاب، ويبدو أن ذلك قد حُمِلَ أكثر مما يُحتمل، ولعل قصد حنين كان شريفاً على قول من قال ((أنه نتيجةً لغلظ ورق الكتاب بقيت هذه السنين المتطاولة من الزمن))^٢ وحافظ على الكتاب من آفات الدهر وهو مقصد شريف ولا شك...

ولحنين رسالة كان قد ألفها فيما أصابه من المحن والشدائد من الذين ناصبوه العداوة من منافسيه وحاسديه من أهل زمانه، وهي ضريبة التفوق على ما يبدو في كل زمان ومكان سواء هي بين العلماء وعند الجهال... يقول حنين: ((انه لحقني من أعدائي ومضطهدي، الكافرين بنعمتي الجاحدين لحقي، الظالمين لي، المتعدين عليّ، من المحن والمصائب والشورور ما منعتني من النوم وأسهر عيني، وأشغلني عن مهماتي وكل ذلك من الحسد لي على عملي... بغير جرم لي إلى وأحد منهم ولا جنائية، ولكنهم لما رأوني فوقهم، وعالياً عليهم بالعلم والعمل، ونقل إليهم العلوم الفاخرة من اللغات التي لا يحسنونها، ولا يهتدون إليها، ولا يعرفون شيئاً منها في نهاية ما يكون من حسن العبارة والفصاحة، ولا نقص فيها ولا زلل ولا ميل لأحد من الملل، ولا استغلاق ولا لحن، باعتبار أصحاب البلاغة

^١ المصدر السابق، ص ١٤٧-١٥٠.

^٢ المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٩.

من العرب الذين يقومون بمعرفة وجوه النحو والغريب ولا يعثرون على سيئه ولا شكله ولا معنى، ولكن بأعذب ما يكون عن اللفظ، وأقربه إلى الفهم يسمعه من ليس صناعته الطب، ولا يعرف شيئاً من طروحات الفلسفة^١، نعم هو رجل عالم غير مدع كان نقله هو القدوة، وكانت ترجماته هي الراجحة، فاق المترجمين السابقين واللاحقين، ولكن هؤلاء الذين عاصروه، كانوا يرمون سفك دمه من الحسد حتى قال مرة ((هممت أن أقتل نفسي من الغيظ والزرذ))^٢ حتى مات بالفعل من الغم على ما يذكر ابن ججل^٣، ((الست خلون من صفر سنة مائتين وأربع وستين للهجرة، وكانت مدة حياته سبعين سنة))، المجد للعلماء الخالدين... وحنين بن اسحق في الصف الأول من علماء (مدرسة بغداد الفلسفية) وممن شق لها الطريق للاطلاع على الفكر الآخر...

ويكفي (مدرسة بغداد الفلسفية) فخراً أن لها مؤسسين أفضالاً كحنين بن اسحق العبادي وابنه اسحق بن حنين، وابن أخته حبش بن الحسن الاعسم، وثابت بن قرة الحراني، الذين خلفوا وراءهم ثروة فكرية هائلة أفردت لها المصنفات وصنعت فيها الفهارس، فلقد كان لحنين وحده فهرست ضم نحو مائتين وستين كتاباً مترجماً وشرحاً وتفسيراً وضم نحو مائة وخمسة عشر كتاباً مؤلفاً في الطب والتشريح والفلسفة والعلوم الاخرى، ومؤلفات أبوقراط، وأفلاطون، وأرسطو، والاسكندر الافروديسي نجد تفاصيلها في كتاب الفهرست لابن النديم وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، والبيهقي وغيره.

^١ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥١، طبقات الأمم، ص، ٢٥-٦٠.

^٢ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٦.

^٣ الفهرست، ص ٣٠٤ فما بعد، عيون الأنبياء...، ج ٢، ص ١٤٧، فما بعد، القفطي، ص ١١٧.

فما بعد.

قسطا بن لوقا البعلبكي (ولد ٢٠٥هـ / ٨٢٠م - ت ٣٠٠هـ /

٩١٢م)

آخر الفلاسفة من السلالة اليونانية، ((الذين كانوا في عهد الإسلام في مملكة بني العباس، معاصراً ليعقوب بن اسحق الكندي)^١، فاضل، نبيل، متقدم في صناعة الطب^٢، كان مشهور التحقق بالعدد والهندسة والنجوم والمنطق، والعلوم الطبيعية))^٣، لا يطعن عليه بنقل، ولا يعاب في ترجمة ((فصيحا باللغة اليونانية، جيد العبارة بالعربية))^٤، وقد نقل أشياء من السريانية كما نقل عن اليونانية وأصلح نقولاً كثيرة، ترجمها غيره وقام بمراجعتها، لاعتمادهم على ترجمته، كان قد حمل معه كتباً يونانية كثيرة، عندما استدعي من الشام إلى بغداد ((ليترجم كتباً ويستخرجها من لسان يونان إلى لسان العرب))^٥، ((وقد وجد ابن النديم أن قسطا كان يجب أن يقدم على حنين، لفضله ونبله وتقدمه في صناعة الطب ولكن بعض الإخوان سئل أن يقدم حنين عليه، وكلا الرجلين فاضل))^٦، فكما كان حنين صاحب (بيت الحكمة) في زمانه، كان قسطا مهما في بيت الحكمة أيضاً، مسؤولاً عن أقسام الترجمة من اليونانية والسريانية والكلدانية إلى العربية بتكليف الخليفة المأمون^٧، لأنه ((كان ناقلاً خبيراً باللغات، فاضلاً في العلوم الحكيمة وغيرها))^٨،

^١ صاعد الأندلسي، طبقات الامم، ص ٤١، القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٧٣-١٧٤.

^٢ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٣.

^٣ صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص ٤١.

^٤ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٣، القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٧٣.

^٥ القفطي، المصدر السابق، ص ١٧٣.

^٦ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٣.

^٧ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ١٧٤، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٧٤، حاجي

خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ٦٨٢.

^٨ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ١٧١.

وصفه المستشرق الفرنسي هنري كوربان بأنه ((فيلسوف وطبيب وفيزيائي ورياضي، ترجم شروح الاسكندر الافروديسي، وبعض الشروحات الجزئية عن الكون والفساد))، ووجد هذا المستشرق بين مؤلفات قسطا بن لوقا رسالته عن الفرق بين الروح والعقل، وكذلك بعض أبحاثه عن العلوم الخفية، حيث تشبه شروحه وبشكل مثير أبحاث علماء النفس في أيامنا^١، وتعد رسالة قسطا في ((الفصل بين النفس والروح))^٢، من أنفس الرسائل الفلسفية (ترجمت إلى اللاتينية وبقيت إلى أيامنا وقد ذكرها الباحثون كثيراً وانتفعوا بها)، ترجمها يوحنا الأسباني منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وانتفع بها)، ونشرها بالعربية لويس شيخو الأب اليسوعي في مجلته المشرق - ١٩١١ عن نسخة خطية بالمكتبة الخالدية بالقدس الشريف^٣، ووصف النفس على حقيقتها عند قسطا بن لوقا البعلبكي: ((صعب معاصر جداً))^٤، أما الروح فهي ((جسم لطيف مقره التجويف الأيسر من القلب، ومن هذا المكان تمد جسم الإنسان كله بالحياة وتنيله القدرة على الحركة والحس، وكلما كان الروح رقيقاً لطيفاً صاحباً كان صاحبه عاقلاً مفكراً، سائساً مدبراً مميزاً))^٥.

^١ تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ٥٨-٥٩.

^٢ هنري كوربان: القهرست، ص ٣٥٣.

^٣ دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة عبد الهادي أبو ريده، ص ٣٩، وهامش المترجم رقم ٢ و٣.

^٤ قسطا بن لوقا، رسالة (الفصل بين النفس والروح)، ص ١٠٣. وهامش ٣ من ترجمة عبد الهادي أبو ريده لكتاب دي بور، (تاريخ الفلسفة في الإسلام)، ص ٣٩.

^٥ دي بور، المصدر السابق ص ٣٩.

وينقل القفطي عن أبي الفرج الملطبي قوله: لو قلت حقاً لقلت أنه أفضل من صنف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل، وما رزق من الاختصار للألفاظ وجمع المعاني)^١.

ولقسطن بن لوقا ((كتب مختصرة بارعة منها كتابه (المدخل إلى علم الهندسة) وهو مؤلف على المسألة والجواب لا نظير له))^٢، ويدل على أنه كان مهندساً منظرًا ذا خبرة بفنه.

ومثلما برع قسطن في الهندسة، برع في الفلك والهيئة والجغرافية وعلم الرصد والحساب والعدد وصناعة الآلات من أصحاب الحيل والحركات وهندسة الميكانيك، ونظرة إلى قائمة كتبه التي ذكرها ابن النديم في الفهرست^٣، وإحصائية المستشرق بروكلمان^٤، تؤكد أن قسطن كان عالماً موسوعياً بارعاً، ولعل العودة إلى تعداد كتبه ورسائله وتوضيحها سيكون تحصيل لحاصل ولكن من المناسب أن نذكر أن قسطن كان من أوائل العلماء العرب الذين ابتكروا الكثير من النظريات وبحثوا في تأثير الطبيعة، وكتابه (المرابا المحرقة) نقلة متقدمة في علم الحرارة، وكتابه (العلة في أسوداد الحبش) فيه إشارات ذكية سبق بها عصره، عن تأثير الحرارة والأمطار والبيئة بما فيها من بخار وجبال وسهول على عادات الإنسان ولا سيما ظروف حياته في أسباب تغيير بشرة الإنسان وسواد لونه.

ويعد كتابه (المدخل إلى المنطق) وكتابه (شرح مذاهب اليونانيين) الذي يحتوي على آراء الفلاسفة في الأمور الطبيعية تأكيداً على أهمية الفلسفة في (مدرسة بغداد الفلسفية)...

^١ القفطي، أخبار...، ص ١٧٣-١٧٤.

^٢ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٤١، ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٣.

^٣ ص ٣٥٣، ومواضع أخرى ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١٠، ٣١١، ٣١٤.

^٤ تاريخ الأدب العربي، ج ٤، ص ٩٨-١٠٣.

كما تعد كتبه الطيبة وترجمته لها ولغيرها من كتب النجوم والحساب والعدد شواهد على ما يتمتع به هذا الإنسان البارِع في (مدرسة بغداد الفلسفية) .

ويبدو أن كل ما كان يتمتع به قسطا من شهرة، ويظفر به من مكافأة وتقدير لم يكن يتناسب مع سعة علمه وفضله، لذلك فضل أن يهجر العراق إلى أرمينيا، ليعيش فيها بقية حياته، ولعل اضطراب الأحوال في العراق بعد اغتيال المتوكل كان الدافع لذلك النزوح عن العراق...

وكان بأرمينيا أبو الغطريف البطريق. من أهل العلم والفضل فحمل إليه قسطا كتباً كثيرة جليئة من أصناف العلوم، سوى ما حمله إلى غيره من أصناف شتى، (ومات هناك وبنيت على قبره قبة إكراماً له كإكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع)¹...

كان لعصر قسطا بن لوقا الذي ضم كبار الفلاسفة والمترجمين الذي أسسوا لمدرسة الفكر البغدادي مثال (الكندي وحنين بن إسحاق وإسحق بن حنين وحبش الأعمس وثابت بن قرّة وأبنائه وأحمد بن الطيب السرخسي، والطيفوري المتطبب، وأبناء موسى بن شاكر المنجم محمد وأحمد والحسن والخوارزمي وغيرهم كثير، كان هذا العصر الأساس المتين الذي بنيت عليه (مدرسة بغداد الفلسفية) تأسيساتها الأولى... وحيث كان الأساس متيناً كانت نتائجه متميزة لقد استطاع هذا الجمع الخير من الأفاضل أن يؤسسوا حقيقة (مدرسة بغداد الفلسفية) وأن يسهموا مع مفكري بغداد الآخرين ومنهم النظام والعلاف وجابر بن حيان وهشام بن الحكم وعشرات غيرهم في ازدهار حركة الفكر بصفة عامة ودراسة الترجمة بصفة خاصة لنقولهم الكثيرة وشروحهم الجيدة ومختصراتهم النافعة فأضافوا إلى (مدرسة بغداد الفلسفية) قوة جديدة ظل أثرها نافذاً (ويعد قسطا آخر من عمل

¹ القفطي، أخبار الحكماء...، ص ١٧٣، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء...، ج ٢، ص ٢٤٥.

على ازدهار حركة الترجمة حتى وفاته عام (٣٠٠هـ-٩١٢م) وتعد وفاته نهاية لعهد طبقة النقلة والعلماء في التأسيس والبرواكير ونشأة (مدرسة بغداد الفلسفية) ...^١

ثابت بن قره الحراني الصائفي (ولد ٢١١هـ-٨٣٦م-٢٨٨هـ/ ٩٠٠م)^٢

أبو الحسن الحاسب الحكيم، كان في مبدأ أمره صيرفياً بحران، أنتقل إلى بغداد، واشتغل بعلوم الاوائل، فمهر فيها، وبرع في الطب^٣، (ولم يكن في زمن ثابت بن قره من يماثله في صناعة الطب، ولا في غيره من جمع أجزاء الفلسفة^٤)، بل (كان الغالب عليه الفلسفة)^٥، والحراني بعد ذلك (من أعظم

١. د. رشيد الجميلي، حركة الترجمة، ص ٣١٤-٣١٥.

٢ الفهرست، ص ٢٣١: قال: (ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين، وتوفي سنة ثمان وثمانين ومائتين وله سبعة وسبعين سنة شمسية، وهذا لا يوافق قوله السابق، فإذا طرحنا سني عمره (سبعة وسبعين) من تاريخ وفاته ٢٨٨هـ، كانت ولادته كما ذكرنا سنة ٢١١هـ / ٨٣٦م، وهو ما يؤكد ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء) قال: (كان مولد ثابت بن قره سنة إحدى عشرة ومائتين بحران يوم الخميس الحادي والعشرين من صفر، وتوفي سنة ثمان وثمانين ومائتين ولد من العمر سبعة وسبعين سنة)، ج ٢، ص ١٩٦، غير أن كل من ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣١٤، وصاعد الأندلسي في كتابه (طبقات الأمم)، ص ٥٧: قالوا: أنه لم يدرك خلافة المأمون وهذا صحيح إذا كانت ولادته سنة ٢٢١هـ / ٨٤٥م، ومن المرجح أنها غير ذلك سنة (٢١١هـ / ٨٣٦م) ...

٣ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣١٣.

٤ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ١٩٣.

٥ القفطي، اخبار العلماء، ص ١١٥، المصدر السابق، ج ٣١٣. قال: إن الغالب على ثابت بن قره من العلوم (الفلسفة).

المترجمين، وأعظم من عرف في مدرسة (حاران) في العالم العربي^١، ويذكر في سبب انتقاله من موطنه (حاران) إلى بغداد، أن محمد بن موسى بن شاعر المنجم، اصطحبه معه (لما أتصرف من بلد الروم لأنه كان رآه فصيحاً... فوصله بالمعتضد وادخله في جملة المنجمين)^٢، وعلى هذا وجده صاعد الأندلسي: فيلسوفاً متوسعاً في العلوم، متفنناً في ضروب الحكم، متقلداً لجوامع الفلسفة (إليه تأليف حسنة في المنطق والعدد والهندسة والنجوم وغير ذلك)^٣، نعم فقد عاصر أفضالاً مثله عاصر الكندي وحنين بن اسحق وقسطا بن لوقا، رعاهم وشجعهم على المزيد من العطاء الخلفاء والوزراء والعظام من الرجال أمثال أولاد موسى بن شاعر المنجم، حتى عد ثابتاً من جملة الذين يرزقونه (أولاد المنجم) في الشهر خمسمائة دينار للنقل والملازمة)^٤، ولهذا نقرر: أن ثابتاً بن قرّة من المترجمين المبرزين في (مدرسة بغداد الفلسفية)، وعلماً من أعلام الفكر فيها، وترجماته ومؤلفاته إضافات شاخصة في تأسيسات (مدرسة بغداد الفلسفية)، وسنيها الأولى، فيلسوف من فلاسفتها اتخذ الترجمة سبيلاً لإشباع رغبته، والعمل على تطوير أفكاره، أقبل على الترجمة والتحصيل الفلسفي والطبي من تلقاء نفسه، وهذا لا يقدح في نشاطه وإنه كان (يعمل طاعة لخليفة أو وزير، أو رجل عظيم)، فهو من باب نشر العلم ومنحه لمن يحتاج إليه، وعليه لا نرى حقا قول المستشرق دي بور: (ينبغي أن لا نعد هؤلاء النقلة من جملة الفلاسفة ذوي الشأن)...^٥ (وهذا كلام متسرع لا ينطبق على ثابت في الأقل لأن ثابتاً كان فيلسوفاً مترجماً نابغة

^١ قدرى حافظ طوقان: في كتابه (العلوم عند العرب)، ص ١٢٧، وما ذكره من آراء الغربيين في ثابت.

^٢ الفهرست، ص ٣٣١، وعيون الأنباء، ج ٢، ص ١٩٣.

^٣ طبقات الأمم، ص ٥٦-٥٧.

^٤ ابن النديم، الفهرست، ص ٣-٤.

^٥ تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة عبد الهادي أبو ريده، ص ٣٨.

في الرصد والفلك بارعاً في الطب أخذ كتاب (أصول الهندسة) لاقليدس الذي عربه حنين بن اسحق العبادي (فهذبه ونقحه وأوضح منه ما كان مستعجباً) ، وكذا فعل في كتاب اقليدس الآخر (القسمه)، كما ترجم وأصلح وفسر وشرح ولخص الكثير من كتب اليونان، ولذكائه وفطنته وحده ذهنه فقد تألق في ممارساته العلمية والفلسفية والطبية وولج مجالات عدة^٢، وكان لثابت بن قره أرساد ببغداد حسنة اتخذها ليرصد الشمس على وفق (مذهبه في السنة الشمسية، وما أدركه بالرصد من موضع أوجها، ومقدار سنتها، وكمية حركتها وصور تعديلها)^٣، أن هؤلاء الفلاسفة الأعلام كانوا يدرسون العلم للعلم، عكفوا على الدرس والتحصيل رغبة منهم في الاستزادة وفي كشف الحقيقة والوقوف عليها، ولا بأس أن يكون هذا البحث استجابة لتشجيع أو لطلب الخليفة أو أي من أصحاب المعرفة ومحبي العلم، لأن هؤلاء نفر في حقيقتهم كانوا يجدون في البحث والاستقصاء والمتابعة لذة هي أسمى أنواع اللذات، ومتاعاً للعقل هو أفضل أنواع المتاع^٤، وأن التشبث بأقوال من شأنها تحجيم أفكارنا وتشويه تراثنا، وتقزيم علمائنا يبقى كلاماً مشبوهاً بجانب الحق... نعم كان ثابت بن قره عالماً موسوعاً تعددت إبداعاته وعمت عبقريته علوم الفلسفة والطب والرياضيات والفلك، نظر وأضاف فروعاً للعلوم،... أن ثابت بن قره كان من العلماء الذين أسهموا في اكتشاف (التكامل والتفاضل) وهو فرع من فروع الرياضيات وأنه أجاد في التحليلات الهندسية إجابة عظيمة وله ابتكارات سبق بها الفيلسوف والعالم

^١ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٢٥-٣٣١.

^٢ المصدر السابق، ص ٣٢٦.

^٣ صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٧.

^٤ د. رشيد الجميلي، حركة الترجمة...، ص ٢٩٨، طوقان: العلوم عند العرب، ص ١١٨-

الرياضي الغربي (ديكارت)^١، ويبقى هذا الفيلسوف المترجم بحق من أعلام الصف الأول في (مدرسة بغداد الفلسفية) (ومن أعيان عصره في الفضائل)^٢، وتخرج على تصانيفه المشهورة بالجودة جماعة كثيرة من طلابه، سواء منهم من نريته ومن أهله، أم من غيرهم كانوا جميعاً (يقاربونه فيما كان عليه من حسن التخرج والتمهر في العلوم)، وهم أيضاً كانوا مثل ثابت في الديانة، صابئي الملة، بل كان ثابتاً على رأي ابن النديم: أصل رئاسة الصابئة في بغداد، وهو الذي جعل لأهل هذه الملة المقام المحمود في قصور الخلفاء، وعلت مراتبهم واستقرت أحوالهم^٣، وكان لثابت بن قره مصنفات ورسائل تتعلق بتقعيد القواعد لمذهبه وشرح ديانته منها (رسالة في مذهب الصابئة وديانتهم)، وأخرى بالسريانية (رسالة في الرسوم والفروض والسنن) وثالثة في (تكفين الموتى ودفنهم)، ورابعة في (اعتقاد الصابئين)، وخامسة (في الطهارة والنجاسة)^٤، ...

وكان في بغداد، مدرسة أخرى تقابل مدرسة ثابت بن قره الحراني تزعمها أول الأمر البخاشعة النسطوريون في مدرسة جنديسابور، ثم مدرسة حنين بن اسحق مع جملة أبنائه وأقاربه وطلابيه من نصارى الحيرة، كانوا أوفر المترجمين إنتاجاً وقد ظل هؤلاء جميعاً مخلصين لدينهم النصراني، دين آبائهم وقد قرأنا فيما سبق تمسك هؤلاء القوم بدينهم ومعتقداتهم يوم قال المنصور لجورجيس بن جبرائيل: يا جورجيس: اتق الله واسلم، وأنا أضمن لك الجنة، قال جورجيس، أنا على دين آيائي أموت وحيث يكون آيائي أحب إليّ أن يكون، أما في الجنة أو في

^١ سليم طه النكريتي، (بيت الحكمة) مجلة المورد، العدد الرابع، ١٩٧٩، ص ٢١٠، طوقان، (الخالدون العرب)، ص ٥٨.

^٢ الققطي، أخبار الحكماء، ص ١١٨.

^٣ الفهرست، ص ٣٣١.

^٤ فصل هذه الرسالة ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء)...، ج ١٩٩، ص ٢١٠.

النار)^١، إن هذا يدل على عظمة الإسلام وسماحته وقوة مبادئه، (وفي الوقت نفسه يدل على تسامح الخلفاء وتقديرهم لحرية الفكر)^٢...

ولأبي الحسن ثابت بن قره الحراني من الكتب ما شملت الكثير من مجالات الفكر لاسيما الفلسفة والطب والفلك والنجوم، فصلها بإسهاب وشهد بالمقدرة والكفاءة في ذلك كل من أرخ لهذا الفيلسوف المترجم وعلى الأخص منهم ابن النديم في الفهرست^٣ وابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء...)^٤.

^١ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٤٠، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٥.

^٢ دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٣٩.

^٣ الفهرست، ص ٣١٤، ص ٣٢٥، ص ٣١٢، ص ٣٤٢-٣٤٣.

^٤ ص ١٩٣-٢٠١، ابن جلجل: طبقات الأطباء الحكماء، ص ٧٥، صاعد الأندلسي، طبقات

الأمم، ص ٥٧، القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١١٦، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٣١٣-

٣١٤.